SALIM BARAKAT

سليم بركات

رواية
NOVEL

ثادريميس

ثادريعيس

ثادريميس/ رواية
سليم بركات / مؤلّف من سوريا
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس :٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
فؤاد سليمان وهبي
لوحة الغلاف الأماميّ
فسيفساء ورق لفّقها سليم بركات
الغلاف الخلفي
شخص المؤلف من تصوير السويدي Micke Lindstrom
الصفّ الضوئيّ :
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ :
رشادبرس / بيروت – لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN 9953-36-676-4

رواية
NOVEL

سليم بركات

ثادريميس

الفجر الرابع

امتلأت العراءاتُ ، حول الهضاب الثماني في أرض ثارُوْسْ ، بالجثث . تخاطفتِ العقبانُ اللحومَ الممزَّقةَ ، وتهارشتِ الكلابُ فوق الأجساد . لاصوتَ آخر غير صوت الحيوان ، في استجابة قلبه لنداءِ الدم ، تجرَّأَ أن يمكثَ واضحاً في المشهد المُعْتصَر من عنقود الموت . المطرُ ، نفسُهُ ، الذي حوَّل الأرض ، في العراكِ ، إلى أنفاسٍ طينٍ ، بدا مُنْهكاً ، خائراً ، ذا هطولٍ أخرس .

اقترب كلب من شخصين جاثيين ، متعانقين ، يسند أحدهما الآخر فلا يسقطان . كانا ساكنيْنِ ، متصلِّبين ، ممرّغيْن في الوحل كأنما يرتديانه . دار الكلب من حولهما ، فوق سيقان الموتى وصدورهم ، فصوَّتتْ تحت أقدامه دروعٌ متلامسةٌ سَرَتْ نبضةُ المعدن منها إلى الشخصين فأصدرا أنيناً . انفصلا . فتحا عيونهما في إعياءٍ ثقيل . تنفَّسا من فميهما .

«ماسمُك؟» ، تمتم أحدُهما . شدَّ راحتَه على مقبض فأسه . «أترى؟ منذ الفجر ونحن معاً ، في دائرة الوحل هذه . اخبرْني باسمك» .

«ماذا ستفعل باسمي إنْ أخذْتَهُ معك؟ . أنت راحلٌ» ، قال الآخر . تحسَّس بيده الطينَ باحثاً عن فأسه .

ابتسم الشخص الأول من فم صبغَه بعض الدم : «أتظنني سأرحل قبلك؟ فأسي في يدي . فأسُك ليست في يدك . سقطت منك قبل إغفاءتنا هذه من الإعياء» . رفع ذراعه قليلاً .

نظر الآخر إلى الذراع التي تحرّكت : «هذا الارتفاع لا يكفي لتسديد ضربة إلاّ إلى فخذيك .هيّي . ارفعْها أكثر» ، قال متهكماً .

تراخت ذراعُ الشخص الأول . لم تكن دورة الدم المسدودةُ برمل التعب في جسده كافيةً لإبرام حركةٍ تليق بضربة فأس . تمتم الآخر : «اسمي مِينَاذِي . تستطيع أن تأخذه معك الآن» . وعاد يتحرّى فأسه المفقودة .

«اسمي دِيَامِيْنْ» قال الأول .

«أنحن الناجيان الوحيدان ، حتى هذه اللحظة يا ديامين؟» ، ساءله ميناذي ، مديراً وجهه ، في ثقلٍ حجريّ ، على الجهات .

«لم تنجُ أنتَ ، بعدُ . فأسي في يدي يا ميناذي . سأستعيد عضلةَ الموت المتراخية في ذراعي هذه . سأعير الموتَ ذراعي هذه . لم تنجُ بعدْ» ، قال ديامين لاهثاً .

تلمّس ميناذي جثتين من حوله يتقرّى سلاحاً مّا . تهدّلت كتفاهُ يأساً : «سأنتظر ضربتك يا ديامين . سيكون يأسك أشدّ من يأسي الآن في صحبة هذه الكلاب الجائعة . ستتنفس الجثثَ لا الهواء» .

«لم أقتلك بعد ، يا ميناذي . لستُ يائساً يأسك بعدُ يا ميناذي . سأعثر لك على فأسٍ ، أو نصل حَربةٍ ، وسأهبك الوقتَ ، الذي يكفيك ويكفيني لنعيد إلى ضربات المحاربينَ أملَ النهاية الفاخر كخصيَتَيْ هذا الـ» قال ديامين ، وانتشل حفنةً من الوحل رماها بيده المرهقة صوب الكلب المقترب منهما ، فلم يكترث به الكلب . تنفّس من فمه المبتلّ بالمطر . دار ببصره على الجثث الأقرب . «تحت ساق الميت ، الذي على يسارك ، شيءٌ مّا ، يا ميناذي . اسحَبْهُ» .

سحب ميناذي حربةً قصيرة من تحت ساق الميت . مسح النصلَ براحته المُتْعَبة ، فوجد النصلَ مكسوراً . ضحك ضحكةً مختنقة : «لن يكفيني هذا النصل لقتلك» . أسقَطَ الحربةَ من يده : «اقترِب يا ديامين . ساعضّك من وريد رقبتك» ، فمال عليه ديامين : «عُضّني» ، قال .

في الفجر الرابع للحرب حول هضاب أرض ثاروس الثماني ، كانت المصادفةُ المتقَشّرة كالبصلة تحت الفؤوس قد أظهرت لُبّها للمحاربَيْن ، ديامين وميناذي . اخترَقا الصفوف فتواجها جائعينِ إلى حساءِ القَدَر الناضج . ظنَّ كلٌّ منهما ، بالتقدير القويِّ لبراعتيهما في استنطاق الفؤوس ، أنه سيُنهي غريمَه باستدارةٍ عليه ، كالفراشة ، من

صدره إلى ظهره ، بعد ضربة أو ضربتينِ مُرْهِقَتَيْنِ على الترس أولاً ، ثم يشقُّ سلسلةَ العظام الأربعة من العمود الفقري ، تحت الرقبة ، بين الترقوتين . لاأحد ينجو إن غارت شفرةُ الفأس إلى النخاع هناك : حريقٌ صاعقٌ يتلوه الشللُ .

دارا ، أحدهما حول الآخر ، كفراشتين . تقعَّر ترساهما من الضربات ، وتشوَّشتِ النقوشُ في الصفيح السميك . داخ المعدنُ . داختْ ذراعاهما ، وكاد يُغمى على المكان ، في الساعة التي تلت الظهيرة .

لم يكن باقياً من المتحاربيْن الأعداء غيرُ بضعة صفوف قصيرة من الفريقين ، في الفجر الرابع . طحنتِ الجموعُ الجموعَ على الجانبين . اخترقتِ الصفوفُ الصفوفَ ، على الجانبين ، حتى بلغتِ النساءَ ، والدوابَ ، والأطفال ، فمزَّقتهم الفؤوس . كان دأبُ المتحاربيْنَ ، في الأنحاء المترامية حتى الفراغ الذي يلي الفراغَ من أرض ثاروس ، أن يصحبوا أهلهم أجمعين ، ودوابهم ، إلى ساحات الحرب ، فلا تعود النجاةُ ممكنةً إلاَّ بالفوز . وإذْ عاين ميناذي الجهات بعينيه الغريقتين في وحل أعماقه ووحل أجفانه ، أدرك أن لا أحد ، سواهما ، يُبدي حراكاً ، من تخوم كروم العنب حتى الأسوار القائمة على قمم الهضاب . هو لايعرف كيف اخترق بصرُه ستارةَ المطر ، والتفَّ من حول بساتين الزيتون الكثيفة ، ثم بلغ سفوح الهضاب الثماني المرصوفة رصفاً بالموتى . قلبُه المتناثر في هاوية يقينه ردَّد

صدى الفزع الأخير : لا أحد . مال على ديامين : «أتكفي أسناني لقطع وريدك؟» . رفع أصابعَه الموحلة إلى فمه . تقرَّى بها أسنانَه : «عندي ثغراتٌ في فكِّي . أريد سلاحاً» .

«أأعطيك فأسي ، أم أجد لك ماتقتلني به؟» ، قال ديامين . اتَّكأَ على فأسه ، ونهض مترنِّحاً . نظر من عليائه إلى وجه ميناذي المخضَّب بالوحل . أغمض ميناذي عينيه كأنه ينتظر ضربةَ المعدن الأخيرة : «ها استعَدْتَ عضلةَ الموت غيرَ مُرهقَةٍ ، في ذراعك ، ياديامين» ، قال . فتح عينيه على صوت نباحٍ مختنق : «أضربتَ الكلبَ؟» ، تمتم .

جرَّ الكلبُ ، الذي كان يحوم حولهما ، نَفْسَه المثلومةَ مبتعداً ينزف الدمُ من خاصرته . واكبتْه بضع كلماتٍ من ديامين : «لم نمت بعد» . انحنى . التقط حربةً من بين الجثث . قدَّمها إلى ميناذي .

قهقه ميناذي فتناثر بعضُ الوحل عن لحيته القصيرة : «أترى التماثيلَ التي نهبتموها من مجالس علمائنا الولاة؟ عليك أن تلتفت إلى الوراء لتراها» .

دار ديامين على نفسه ، ممسكاً بالحربة والفأس كُلاً في يدٍ : تسعة تماثيل كانت تتقدم ، بحركاتها الثقيلة ، من منعطفٍ أسفلَ الهضبة الثانية ، متفاديةً أن تدوس الجثث . أحدها ضخم لامرأة واضحٌ معدنُها البرونز . إثنان نحاسيان ، ملتمعان . ستَّةٌ حجرٌ .

«ثَادْرِيْمِيْسْ» ، نادى ديامين بصوتٍ استجمعه متخلخلاً ، فتوقفت التماثيلُ برهةً . استدارت إليه بثقل معادنها ، ثم عادت إلى

سيرها في اتجاه الشمال . «لماذا تحمل ثادريميس ، على كتفها ، اللوحَ الذي نحتتْ هيكلي عليه إحدى عشرة مرة؟ . أنت تعرف ثادريميس ، ياميناذي؟» .

«أعرفُها» تمتم ميناذي ، وأطلق زفيراً . «لماذا نهبتم تماثيلَ مجالسنا؟» ، قال الرجل الجالس على ركبتيه .

«سألناكم تمثالاً واحداً ، فسخرتم منا ، ياميناذي . سألناكم أن تعطونا تمثالاً . ألم تكفكم هباتُنا من زيت أرض ثاروس ، وزبيب أرض ثاروس ، وجعة الشعير من أرض ثاروس؟» ، قالَ ديامين ، فردَّ ميناذي : «طلبتم التمثالَ النحاتَ ، لاسواه . لماذا لاتصنعون تماثيل في أرضكم؟ لديكم المعدنُ الحجرُ ، والمعدنُ النحاسُ ، والمعدنُ الهواء» . ابتسم من فمه المدمى : «أنت ، نَفْسُك ، تشبه تمثالاً في قناع الطين عليك . لقد نحتَكَ الهواءُ يادياميں» .

«لو أعطيتمونا . .» ، قال ديامين ، فقاطعه ميناذي : «لماذا كان علينا أن نَهبَكُم تمثالاً؟» .

«تمثال واحدٌ كان كافياً أن يوفِّرَ علينا وعليكم هذه النهاية» ، قال ديامين ، فطأطأَ ميناذي : «تصنعون نهاياتٍ متقنةً كهذه ، لكنكم لاتصنعون تمثالاً» . رفع وجهه إلى ديامين المنتصب : «نادِ ثادريميس البرونزَ . نادِ لاميْنَا ، سيلوبو ، النحاسيِّيْن . نادِ أهْفَافا ، نِيناردِيس ، نيذريو ، مِيْدِيْكْسَا ، سِيْسْ ، رُوْسَالو ، الحجرية . إنها راحلةٌ ، يادياميں» .

«ثادريميس» ، تمتم ديامين بصوتٍ فيه نَوْحٌ أخرس . نادى : «ثادريميس» ، فالتفت تمثالُ المرأةِ البرونز إليه . أرختِ المرأةُ ذراعَها عن اللوح الحجري المستطيل ، المحمول فوق كتفها اليسرى . تهاوى اللوحُ الثقيل من علوٍّ سبع أذرع متهشِّماً ، في الوحل المُدمى . رفرفت فراشةُ الرّنين الحجريّ في قلب ديامين . صرخ مرتعشاً : «ثادريميس» . قهقه ميناذي . اتّكأ على ذراعيه ثم استقام : «لم أعرف أن في أرضكم شجر كينا» . نظر إلى دغلٍ متقطِّع الكثافة قرب إحدى الهضاب .

«أكان تغيَّر شيءٌ ما ، يا ميناذي ، لو عرفت أن في أرضنا شجر كينا؟» ، سأله ديامين . فهزّ ميناذي رأسه : «لا خيال لشجر الكينا» ، قال . حدّق إليه ديامين بعينين يائستين . مدّ إليه الحربةَ : «سأريك خيالَ الكينا» . استدار استدارةً ثقيلةً على ميناذي ، وهوى بالفأس عليه فأصابه بين الكتف والعنق . ترنَّح ميناذي . نفر دمٌ من تحت طوق درعه الموحل . أصدر شخيراً مختنقاً من فمه . مدَّ ذراعه إلى ديامين فأمسك شفرة الفأس . قبض عليها . شدَّ غريمَه بآخر ما في عضله من رمق العَصَب ، وطعنه بالحربة تحت إبطه الأيسر . مَالا أحدُهما في اتجاه الآخر . تعانقا ، ثم انهارا جاثيَيْنِ .

تنفَّس المطر .

بخطىً بطيئة عبرتِ التماثيلُ السُّهْبَ المعشبَ ، شمالاً ، ثم توارت خلف صفوف الكروم الفاصلة ـ كشكٍّ خفيفٍ ـ بين معاقل الأرض ومعاقل السماء .

صريرُ اللسانِ المعدنيِّ

دخل الرسول القادم من أرض ثاروس إلى القلعة الطين ، من بوّابتها الحجرية ، المتشعبة المداخل كالمتاهة . تنفَّس هواءَ أرض هِيْكو - محميّةِ «الروح الصلبة» ، آخر منابت العمران على تخوم جبال كُوْرْبِيْن السوداء ، ذوات السلاسل اللامتناهية الموصودة ، حيث لاقيامةَ لبشرٍ بعد ذلك ، ولانَفَس لحيوانٍ ، ولانماءَ لزرع . اخترق الساحةَ الكبيرة ساحةَ السوق المحاط بأبراجٍ مستديرة ، واطئة ، مسقوفة بأخشاب تظلِّل الحاناتِ المكشوفة ، ومجالس المقايضات الثمينة بين الخاصَّة من حذَّاقِ شِرى المعادن ، المستخرجة من مناجم جبل رِيْنْدُو ، ذي الوساوس المعروفة عند الحفَّارِيْن بعَرَق الزئبق .

لم يكن الرسول جَاجِيْلْيُو متعباً من عناءِ السفر على جواده الأخضر العينين . لقد نام ليلته ، منذ المغيب حتى الصباح ، قرب سور القلعة ، بعد عشاء من الخبز ، والعسل ، وبعض الزيتون . أراد أن يبدو

نضراً ، غيرَ مرهَقٍ ، قبل دخوله أسواق هيكو ، مسترشداً ، من الساحة هناك ، بالقباب الثلاث الحمراء ، التي تعلو سرايا الحاكم القاضي ميناذي . جاور ثُلَّةَ الحرس المسترخية بلا تحسُّبٍ حتى ظنَّ أن في مستطاعه دخول السرايا بلا استئذان ، لكنه آثر سلوكَ الرُّسُل في مهمَّاتهم . ترجَّل عن جواده . أراهُم خَتْم قاضي الأرض التي قَدِم منها : «عندي كلماتٌ من المؤتَمَنِ على جلال تراب ثاروس إلى المؤتَمَنِ على جلال تراب هيكو» ، قال ، فقاده اثنان ، بجواده ، عبر سُرادقٍ طويل من عرائش شجر البوغانفيلي البرتقالي ، والأرجواني .

كان السرايا مليئاً ، من الداخل ، بحشود متفرقة ، تتجادل بلاغضب في شؤون عرائضها ، ومسائل اختصاصاتها ، وأحوال البنود الموجبة لحلٍّ خلافٍ أو تقييد خلافٍ حتى ينظر فيه الفقهاءُ قبل رفعها إلى ميناذي . نفخ أحدُ المرافقيْنِ في بوق خفيض الصوت ، لكن صداه بَسَط رهافةَ الخفيِّ الصامت على رهافة الظاهر الصاخب : «عندنا ضيف من ثاروس» ، قال النافخ في البوق ، فمرَّت كلماتُه كنحل شجر الأكاسيا بين الرؤوس حتى حطَّت على يد القاضي الموشومة برسم لزهرة المنثور وقمرٍ هلالٍ . نهض القاضي الطويل ، الزاهدُ الهيئة ، عن الأرض المفروشة بكليم أزرقِ النقوش . «أقلتَ أرضَ ثاروس؟ كيف تذكَّرنا القاضي يُوْرَابَات الحصيف؟ مَن الرسولُ؟ تقدَّمْ» .

تقدّم جاجيليو النحيل في سرواله الطويل ، الواسع كشراعٍ . خَفَقَ

معطفُه الجلدُ غير المدبوغ جيداً . سبقته كلماته ويده الممدودة : «هذا خَـتْمُ المُؤْتَمَن على أرض ثاروس . أنا رسـوله» . بدا عـجـولاً . ابتـسم ميناذي : «أهلاً بك رسولاً . تعال» ، فعاجله جاجيليو بحركة الصوتِ اللامدرّبة على التمهيد : «أين التماثيل؟» .

اختلطت إشارة يده بحركة عينيه . عمّ صمتٌ صاخبُ الفضول . نطق ميناذي وهو يلجم تسارع المعاني المُرْبِكةِ قليلاً : «أأكلت شيئاً ، أيها الرسول؟» ، فردّ جاجيليو ، الممسك برسن جواده : «من يأكل خبزاً مـغـمـوسـاً في زيت ثاروس لا يجـوع أربعـة أيام ، لديّ يومـان ، بَعْـدُ ، لأجوعَ» . نظر إلى جواده : «أأنت جائع؟ رعى العشبَ قرب سوركم . عشبٌ مدرَّب» .

«مدرَّبٌ على ماذا؟» ، ساءله ميناذي مستغرباً ، فردّ جاجيليو :

ـ على الإصغاء إلى قلب جوادي .

«ومـا به قلب جـوادك ، أيهـا الرسـول؟» ، سـاءله مـيناذي بصوتِ الحيرة في تقدير التورية على لسان الرجل الممسك برسن جواده . ردَّ جاجـيليـو : «قلبـه قلب السـهـول» . تلفَّت من حوله . غـمـغم : «أين التماثيل؟» .

سادت الهمـهـمات بين الحشد المحيط بميناذي . طغى عليها صريرٌ معـدنيٌّ بارد . ارتفع جسـد تمثال برونزـ تمثالِ امرأة كـان جالسـاً ، في الأرجح ، قرب منصّة عالية لم ينتبه إليها جاجيليو . رنَّ لسانُ التمثال في جوف الفم إذ نطقَ : «ما لك وما للتماثيل ، أيها الرسول؟» .

تبلبل جاجيليو . حمحم جواده قليلاً وارتبك . تقدّمت المرأة البرونز ، العالية سبعَ أذرع . سرى صدى خطواتها الثقيلة في أرض السرايا فمسَّ قدميَّ الرسول . تحركت عيناها في محجريهما . أصدرتا صريراً .

حدّق جاجيليو ، متردداً ، إلى عينيها الكتيمتين الخاليتين من نقش البؤبؤ والحدقة كما في العيون . رفع ختمَ قاضي ثاروس كأنما يريها إشارةً لم يُحسن رسْمها بالكلمات . أيقظه من بلبلته وتردّده صوتُ ميناذي : «حيَّرْتنا قليلاً ، أيها الرسول ، لم تقُل اسمك ، ولم تحدّد غرضَ قدومك ، ماذا تريد من التماثيل؟» .

تدحرجتْ كلماتٌ لها طقطقةٌ حجرية ، كأنما نطقت أرضُ السرايا نَفْسُها : «أتريدُ زوجةً من سلالتنا؟» ، قال تمثالٌ لا يجاوز ذراعاً ، خرج من بين سيقان الواقفين . دقَّ بيده ، في حركةٍ باردةٍ ، على صدره . «جلودنا رقيقةٌ كعيني جوادك» ، قال ، فضحك البعض ضحكاً خافتاً . كمَّموا أفواههم براحاتِهم لا يريدون أن يبدر منهم ما يشبه استخفافاً . وبَّخ ميناذي التمثالَ برقَّة : «تمهَّل أيها المخلوق سِيْلُوْبُو . هذا رسول القاضي يورابات» .

تحسَّس جاجيليو فأسه المتدليةَ على خاصرته ، وهو يحدِّق إلى التمثال النُّحاسيِّ ، القصير- تمثالِ رجلٍ بلحية ، وخوذة ، ودرعٍ يغطي هيكله برمَّته . تمتم بلسانٍ ثقيل : «اسمي جاجيليو . أنا هنا أُطلب ، باسم القاضي يورابات ، تمثالاً يؤنسُ مجلسَ الولاة ، ويكون بهيجاً في

عيون أولادِ أرضِ ثاروس» .

غمغم الحشدُ الواقف . تأمل ميناذي الطويلُ الجسم ، ذو المعطف الأحمر المطرَّز بخيوطٍ سوداء ، الرسولَ جاجيليو . تكلَّمَ : «هلاَّ أخذ أحدٌ عن ضيفنا جواده؟» ، فهرول من أخذ رسنَ الحيوان من يد الرجل النحيل . استدار إلى تمثال المرأة البرونز ، المنتصبة في ثوبٍ من الزرد يغطيها حتى الركبتين : «لم يأتنا أحدٌ من قبل ، يطلب تمثالاً ، يا ثادريميس ، ابنةُ الصُّلْب المجوَّف كطبائع الناطقين . بمَ تفسّرين هذا؟» ، لم ينتظر جوابها . نظر إلى الرسول : «أَطَلَبَ القاضي يورابات تمثالاً ، أيها السيد جاجيليو؟» .

«لديكم تمثالُ نحّاتٌ» ، قال جاجيليو بلسانٍ عجولٍ . «طلب القاضي التمثالَ النّحّاتَ» .

سرى الصدى البارد من خطوات المرأة البرونز ، إذ تقدَّمت ، إلى قدميِّ الرسول العصبيِّ الوجه . نطقتْ ، فخرجت الكلماتُ مصحوبةً بصرير اللسان المعدنِ : «أنا التمثالُ النَّحّاتُ في أرض هيكو» . جاورَتْهُ فبدتْ كبرج . مالتْ بوجهها عليه : «ذاكرتكَ ذاكرةُ الظلّ . أنت لا يُنْحَتُ لك رسمٌ . أأنتم بلا قلقٍ في أرض ثاروس ، أيها الرسول جاجيليو؟» .

خلا وجه جاجيليو من أي نزوع إلى فهم التوريات . قلَّبَ بصرَه بين وجه المرأة البرونز والختم الذي في راحته . تكلّم بغتةً : «أين جوادي؟» .

«إنه ينعمُ برفقة جيادنا الآن ، أيها الرسول جاجيليو» ، قال ميناذي .

«كيف أصحب هذا التمثال الضخم؟ ماذا لو حاولتْ ثاد . . . أن تهرب؟» ، قال جاجيليو متلعثماً ، فقهقه الحشدُ من حوله . تكلم ميناذي مَرِحاً : «أوثِقْها ، أيها الرسول . اسْحَلْها من خلفك فوق الصخور . اغْوِها بلسانِ الدّاهيةِ اللّعوب فيك فربما تعلّق قلبُها بك ، والعاشقةُ لا تهربُ ، أيها الرسول جاجيليو» . رفع وجهه إلى ثادريميس : «لماذا يطلب قاضي ثاروس يدكِ ، أيتها الآنسة؟» ، قال بصوتِ الدُّعابة .

«الفضول ، أيها القاضي ميناذي . إنه الفضول ، الذي سيغدو مللاً . وسيغدو المللُ شكّاً . وسيغدو الشكُّ يقيناً . وسيغدو اليقينُ اشتغالاً ، من جديد ، على إعادة ترتيب اليقين القَلِق . أنتم خلائقُ الخوف ـ أيها القاضي ميناذي ـ محترفو تدبير الخوف ، بفضولٍ أو من دونه» ، قالت ثادريميس بصوتٍ جافٍّ ذي صدىً معدنيٍّ في كهف حنجرتها .

«ألا ترين أيتها الآنسة ثادريميس ، أنك تستعذبين الأجوبةَ المطحونة؟» ، ساءلها ميناذي ، فردَّ تمثالُ المرأة البرونز : «مطحونةٌ ككلّ شيءٍ آخر في علوم خلائق الخوف ـ نوعكم ، أيها القاضي ميناذي» .

غمغم الحشدُ الواقف جمْعاً جمعاً . دقَّ شيخٌ على فخذ التمثال بأصبعه فسُمعَ الصدى في جوفه : «الذي أنشأكِ صبّاً في قالب

الصلصال كان أخرس ، أيتها الآنسة ثادريميس . وها نسمع منك خيالَهُ الناطقَ» ، قال ، فاقترب منه التمثالُ النُّحاسيُّ سيلوبو . تكلّم بلسان الجوهر الخشن فيه : «لو قرعتُ بيدي على عظامك ، أيها الشيخ كوْدِيْرُو ، أيَّ صدىً أسمع غيرَ الصدى المعذَّب لخيالك؟» ، والتفت إلى الرسول جاجيليو : «أرأيت تمثالاً من قبل؟» ، ساءله ، فردّ جاجيليو :

ـ لا .

«أتناوَلْتَ وجبةَ عشاءٍ دسم مع تمثال؟» ، قال سيلوبو بصوته المعدنيِّ ، فقاطعه ميناذي : «قال لك إنه لم يرَ تمثالاً» .

«أقامرتَ مع تمثال؟» ، قال سيلوبو للرسول جاجيليو المنحني عليه برأسه ، فعاد ميناذي إلى مقاطعته : «كفاك عبثاً ، ياسيلوبو» . ثم وضع يده على كتف الرسول : «إبقَ الليلةَ هنا . تعشَّ مع سيلوبو» . ضحك الحشد . «ماذا تتعشى ، ياسيلوبو؟» ، قال أحد الواقفين . استطرد ميناذي : «قامِرْ بجوادك ضدَّ سيلوبو . سيخسر . هو يخسر أبداً . ستربح وزنَكَ نُحاساً» .

«ماللعبة؟» ، سأله جاجيليو في فضول .

تأمَّله القاضي ميناذي . رفع وجهه إلى ثادريميس برهةً ، ثم عاد ببصره ، من جديد ، إلى وجه الرسول : «إنْ عُدتَ إلى القاضي يورابات معافىً غداً احملْ إليه كلماتي القليلة هذه : سنقايض أرضَ هيكو وتماثيلَها بأرض ثاروس . نحملُ نساءَنا ، وأطفالنا ، ودوابنا ،

ومُؤَنَنا ، إلى ثاروس ، وتحملون أنتم نساءَكم ، وأطفالكم ، ومُؤَنكم إلى هيكو . التماثيل ستبقى هنا ، لكم» ، وتطلَّع من حوله بعينين فيهما مَرَحٌ : «أنسيتُ شيئاً؟» .

ترقرق الصوتُ المعدنيُّ هامساً من حنجرة ثادريميس : «سيحمل القاضي ميناذي حنينَه إلى هيكو معه . فلْيحملِ القاضي يورابات معه حنينَه إلى ثاروس» .

إله اليوم الواحد

كان القاضي يورابات منشغلاً بالخيوط الزرقاء على نَوْله ، وهو ينسج بساطاً ذا رسوم مبهمة ، حين دخل إلى إيوان برجه الطيني سبعة من عقلاءِ الهضاب ، بينهم الوالي كيمو ، القائم بشؤون هضبة رُوْفا . داروا من حوله يتأملون النَّسْجَ ، ويتهامسون بكلام في مراتب المُلْغزِ من الرسوم ، والأليف من ضروب الشكل وضروب اللون .

كل صباح يعكف يورابات على آلة النَّساج الصغيرة ، مجارياً النساء اللواتي يتَّخذن مجالسهن أمام الأنوال الأربعة الكبيرة في الإيوان . كل حديث ؛ كل خصومة ؛ كل قضاءٍ في مسألةٍ أو مُعْضلةٍ ؛ كل مسامرةٍ أو ثرثرة ؛ كل دخول إلى المجلس ذي الأرائك المتباعدة ، وخروج منه ، يتم على وَقْع الأمشاط الخشبية وهي ترصُّ الخيوطَ بقوّة في شبكات النُّسُج ، التي تغدو ، وقتاً بعد آخر ، بُسُطاً ، وطنافسَ ، ومفارشَ على الأرائك . لم يكن يورابات يتوقف عن استنطاق آلته

علومَ عقلها النقَّاش حتى مشارف المساءِ ، خلا وقْتَيْ إفطارِه ، وغدائه المتأخريْنِ قليلاً ، فيضمُّ إلى مائدته القريبة من صحن الإيوان من يكون حاضراً : الزائرين ، والحائكاتِ ، وأولادَه وأترابَهم من أولاد أعيان أرض ثاروس ، الذين لايبرحون الإيوان في لعبهم ، يدخلون ويخرجون من الأبهاء المؤلِّفةِ ـ خلف البوابات نصف الدائرية في جدران الإيوان ـ ساحاتٍ تترامى في أنحاء البرج الطيني ، المنتصب فوق هضبة نِيْنْ ، في قلب الخلاءِ الكبير الجامع للهضاب السبع الأُخرى .

لم يكن البرج ، والساحَةُ المترامية من حوله بأسواقها ، وممرَّاتها وطُرقها ، في عنايةِ حَرَسٍ ؛ ولايتولى تدبيرَ الرقابة جندٌ ، ولايتحوَّطُ للفجاءات رُقباء : منذ خَلَت الأرض العصيَّةُ على القياس ، حتى تخوم جبال كوربين السوداء ، من بشرٍ أو عمرانٍ ، حرباً بعد حرب ، إلا القلاع الصغيرة لأهل هيكو ، لم ينزع القاضي يورابات إلى استحداث حاميات ، أو فِرَقٍ تتولى الضبط والرَّبط . ثكنة واحدة قامت على مشارف كل هضبة ، فيها نخبةٌ من المحاربين ، بأمرة واليها . لاتتدخل في المنازعات ، ولاتخرج إلاَّ لضرورة ، أو لزيارة أهل . حتى البرج الطيني المخروطي ـ القائم وسط حلقاتٍ متتالية من البيوت المخروطية ، القُمْعية السطوح ، المجلَّلة بالقرميد الأسود ـ خلا في مداخله من حُجَّابِ حَرَسٍ ، إلاَّ نساءً تولَّيْنَ مواكبة الداخلين ، وإرشادهم إلى إيوان يورابات ـ القاضي الحائك .

«أيُّ رسْم هذا الذي تنسجه ، أيها القاضي يورابات؟» ، ساءله

الوالي كيمو ، المطوَّق الرأس بأربعة أطواق من نُوى الزيتون ، فرد يورابات :

ـ ليس رسماً هذا . إنه مَرْتَبةٌ مُلْغِزة من مراتب اللون .

«كنتَ تقتدي بالحائكات سِيْنْدو ، لاَلْ ، نُوْنِيْهْ ، هِنْكِي ، الأخوات الأربع ـ مروِّضات الرسوم القوية . ها أرى الخيوطَ مُعْتَلَّةً على نَوْلك ، والشكلَ مُهشَّماً» ، قال كيمو .

غمغم العقلاءُ المحيطون بيورابات موافقيْنَ : «ربَّما تراوغُ ، أيها القاضي . ربما يراوغُ النسيجُ» .

«أنت مصيب ، أيها الوالي كيمو . اللونُ معتلٌّ في ما أنسجه . رأيت حلماً متقوِّضاً ـ دَفْقاً هيولى . لا بشر ، لا أشكالَ ، لا صوت . غمامٌ مُعَذَّب . شيءٌ مطحونٌ : كأنني كنتُ مطحوناً ، بلا أعضاء ، لكن أرى امتزاجَ لونٍ بآخر كنُقْلةِ الحُمَّى بين اللحم والعظم . لي في حالِ حلمي أربعةُ أيام . الفجرُ هو الذي يفتح عليَّ مصاريعَ المُلْغِز . وها أنا أنسج مايخيَّل لي أنه الفجر في برهة خداعه» ، قال القاضي .

انفرط العقلاء من حوله . ابتعدوا قليلاً في معاطفهم الطويلة ليجلسوا على طنافسَ فوق مقاعدٍ قصبٍ ، صغيرةٍ تتَّسع لاثنين ، متناثرة بلا انتظام في الإيوان . مسحوا براحاتهم على لحاهم القصيرة في وجوههم الحليقة الشوارب . تكلَّم الوالي كيمو :

ـ أتحبُّ التماثيل ، أيها القاضي يورابات؟

«التماثيل؟ كيف أحبُّ مالا أفكر به؟ . التماثيلُ أَرَقُّ» ، قال

القاضي . توقَّف عن رصِّ الخيوط على نَوْله : «مَنْ إلهُك اليوم ، أيها الوالي كيمو؟» .

«هذا الخاتم ، ذو الفَصِّ الأصفر في بِنْصِري ، هو إلهي اليوم» ، ردَّ كيمو .

«أألْهمك إلهُك انشغالاً بالتماثيل؟ ليس في إرثنا مايقرِّبُها إلى خيال أرضِ ثاروس» ، قال يورابات ، وتطلع إلى أحد العقلاء : « أرأيتَ تمثالاً ، من قبل ، أيها الشيخ نِيْدْيْس .» ، فرد الشيخ وهو يضرب بعقب قدمه ضرباً خفيفاً على الأرض : «مرة واحدة ، قبل ثلاثة عقود ربما ، في هيكو» .

«لاتقل لي إنك تفكر بها أيضاً ، كالوالي كيمو» ، ساءله يورابات وهو يعود إلى رصِّ الخيوط بمشطٍ خشبيٍّ .

«بل فكرت بها . كلنا فكرنا بالتماثيل قبل أيام» ، قال الشيخ نيديس .

ارتدَّ القاضي يورابات إلى الوراء قليلاً على مقعده المستدير . نقل بصره بين وجوه العقلاء : «أيُّ إله اختار واحدُكم اليوم؟» .

كل يوم يختار الفرد الواحدُ ، الناضج في ثاروس ، إلهاً مختلفاً ، بالمَيل الذي في مزاجه ذلك اليوم . قد يختار المرآةَ ، أو الباب ، أو الخاتم ، أو الهواء ، أو الرمل ، أو الماء ، أو الظلَّ ، أو الصوتَ ، أو الشخصَ الأقربَ إليه . وهو اختيار يُلْزِمُهُ الولاءَ بعقله ، ويقينه ، وأمله ، ويأسه ، لما اختار من جمادٍ ، أو حركةٍ ، أو حياةٍ ، إلهاً ليومه ،

فلا يحنث بقَسَمٍ إن أقسم به ، ولايعقد صفقةً إلا بذكْرِه ، ولايتضرَّعُ إلاَّ لَهُ .

«لاشأن لآلهتنا بذِكْر التماثيل ، اليوم ، أيها القاضي يورابات» ، قال شيخٌ آخر من العقلاء . عَلَتْ جَلَبةٌ في أرض الإيوان بدخول جَمْعٍ ضاحكٍ : ثلاثة ولاةٍ ، وعدد من النساء الناظرات على معاصرَ الزيتون . تلاهُم من آثروا الانتقال ، عبر الإيوان ، إلى الساحات الداخلية الصغيرة ، المسقوفة ، خلف البوابات ، في البرج ، حيث الفلكيون يسطِّرون ، على ألواح من الزجاج الأزرق ، حركةَ الروح في منازل النجوم ؛ وحيث الحدادون يسبكون لوازمَ البناء المعدنية ، وحروفَ النقوشِ ـ الصورَ للأبواب ؛ والعذراواتُ يرفعنَ من المحاليل خيوطَ الغَزْل ملوَّنةً كأنفاسِ السرِّ ، الذي جعل العذراوت ، وحدهنَّ ، موكَّلاتٍ ، في أرض ثاروس ، باستحداثِ ذاكرةٍ لونٍ لما ابتكرتْه مغازلُ أمَّهاتهن من خيوطٍ هي الأنفاسُ المرتقبةُ في منسوجاتِ الإيوان ـ رئةِ القاضي يورابات ، والحائكاتِ الجميلات الأربع .

«هل انتقلت سوقُ هضبة نِيْنْ إلى إيواننا؟» ، قال يورابات مستغرباً . وتطلع إلى النساء التسع في صحبة الولاة الثلاثة : «أتعتزمنْ بناءَ معاصرَ ، ومخامرَ جعَة هنا؟» .

ضحكت النساء ، ذوات القمصان الطويلة حتى أعقاب أحذيتهن ، والقبَّعات المنتفخة الحواف . تكلمت سِيْني الرقيقة الشفتين في وجهها الصغير ، وهي تجلس قبل الأُخريات : «المعاصر

مسلِّية أكثر من هذا الإيوان . رائحة الزيت غَزَلٌ ، أيها القاضي يورابات . أما أنوالكم فتتشاجر ، لاغير» .

تأمل يورابات ابنةَ نُوْمْ القائمة بشؤون معاصر هضبة كُوْمَاس مع أبيها ، بقلبٍ يتودَّدُ ، خِفْيَةً ، إلى أعوامها الثلاثين الطريةِ كقِثَّاءٍ في خلٍّ . شمَّ الزيتَ البِكْرَ في يتون الخريفِ الشابِّ . بادَرَها : «أرأيتِ تمثالاً ، من قبل ، أيتها الجميلة سِيني؟» .

تلفتت سيني من حولها مستغربة : «أية مصادفة هذه؟ كان الولاةُ المُبَجَّلون يتحدثون عن التماثيل ، في الطريق!!» .

تحلَّق أولادٌ حول الجالسين برهةً ، ثم عبروا بين مقاعدهم . توقفت يدا يورابات عن رصِّ الخيوط بقدوم التاجرين مَرَكْ ، وَ حُوْثْ : «نصف عناقيد أرض ثاروس لم يزل متدلياً من غصون الكروم . سنغتسل بالنبيذ هذا العام . سننام على فُرُشٍ من الزبيب . أرسِلْ طيراً إلى شعاب جبال كُوْنين ، أيها القاضي يورابات ، علَّها تجد أسواقاً لفائض محاصيلنا . لاأحد يشتري شيئاً» ، قال التاجران متبادليْن السطورَ المتتابعة بلسانين متعاقبين على سرد قلقهما من حال الركود .

«ألاتكفي أسواق هيكو؟» ، ساءلهما القاضي . فهزَّ التاجران رأسيهما مرارة : «يصنعون خموراً من عصارة التين ، الآن . يصنعون جِعَةً من خمائر العَدَس . يُقال لديهم تمثال له علومُ المَخَامِر المفقودة» .

«التماثيل!!! مابالكم استيقظتم على رنين معادنها الثقيلة؟ هي أبداً موجودة في هيكو . يعرف ذلك مَنْ رآها ومَنْ لم يَرَها» ، قال

القاضي ، فوافقه صوتُ خازن الفؤوس دِيامين ، الذي برز من وراء عمود المشاعل الكبير : «علومُ هيكو كلُّها في عُهْدةِ تماثيلها . علومُنا في عُهدة النسيج» ، قال مُمازحاً .

عاد الأولاد يتحلَّقون حول نول يورابات ، تقودهم ابنتُه ـ ابنةُ الثانية عشرة رَابُوْنا : «ماالتماثيل ، ياأبي؟» ، ساءلته الفتاةُ المتطايرة الغدائر في الريح الخفية . فنهض القاضي عن مقعده المستدير . مسَّ شَعرَها براحته : «ماالتماثيل ، ياديامين؟» ، فردَّ خازنُ الفؤوس في أعماق البرج الطيني : «وماذا تكون التماثيل؟ . مخلوقات لاتقطف العنب ، ولاالزيتون . لاتشرب خموراً . لا . . .» ، قال ، فقاطعه القاضي : « . . .لا تتزوج . لاتنام . نعرف . أردتك أن تشرح شيئاً من أمر التماثيل لهؤلاء الأولاد» .

قامت ناظرةُ معصرة الزيت سيني عن مقعدها . اقتربت من ابنة القاضي : «التماثيل مخلوقات من معادن كثيرة . حين يُنجز النحاتون هيئاتها مُجسَّمةً ، كاملةَ التجسيم ، تتحرك وتنطق ، فيعلمها المختصُّون مبادىءَ العلوم الصعبة . وتتولى هي ، بأنفسها ، من ثم ، توليدَ أسرار من تلك المبادىء البسيطة ، وتوسيع خصائصها . التماثيلُ وحدها تصير المَرْجعَ في شؤون العقل العميقة : الفَلَك ، الألغاز ، السموم ، تصنيف الزمن ، تدريبِ النحل ـ كما سمعتُ ، حفظ التواريخ . . . و» ، فكرتْ برهةً ، فتكلم الوالي ماكْرِيْس ، القائم على أمور هضبة بُولان : «والنحت» .

رنَّ معدنُ الكلمة في الإيوان : «النحت» .

«سمعتُ ذلك» ، قال شيخ من العقلاء . أردفَ : «عندهم ، في هيكو ، تمثالُ امرأة تتولى النحت . قيل لي إن النحات الذي تولَّى صبَّها من معدن البرونز لم يجد مَنْ يعلِّمها شيئاً بسبب طنينٍ لم يبرح أعماق معدنها المجوَّف . انتحر غاضباً . أُهمِل تمثالُ المرأة في ساحات هيكو زمناً ، لكنهم فوجئوا بها ، ذات صباح ، تحفر على حجر في جدار أحد أبراجهم وجهَ النحات المنتحر نافراً» .

«ماهذا؟» ، تمتم يورابات وهو يتطلع إلى ثلاثة داخليْنَ هم آخر حلقة ولاة ثاروس الحاضرين . رفع صوتَه ـ صوتَ المستعجب : «أأنتم الولاةُ على موعد ، اليوم؟ لم يكتمل حضوركم ، بتمامكم ، في هذا الإيوان ، منذ أربعة عشر شهراً» . رحَّب بهم بإشارة من رأسه ، وأردف : «لستم هنا لِتحدِّثوني في أمور الآبار ، أو عصافير شجر الزيتون . آلهتكم التي اخترتموها ليومكم آلهةٌ صُلبة» . أومأَ بإصبعه أن لايجيبوا : «أشمُّ من عقولكم صوراً صلبة . أسمعُ حركةً صلبة . أرى شجاراً بين تماثيل» .

ضحك نِيْسَاد ، والي هضبة فَرْنِيْنْ : «لقد سبَقَنا المبجَّلون الجالسون إلى الحديث في أمرها ، أيها الوالي يورابات» .

اجتمعت حلقةُ الأولاد ، ثانيةً ، قرب نَوْل يورابات . تكلَّمت ابنته بانِيْنُوْتي ، توأمَةُ رابونا : «لماذا ليس عندنا تماثيل ، ياأبي؟» ، قالت .

«لانحتاجها ، أولاً . وليس عندنا نحاتون ، ثانياً» ، ردَّ القاضي .

«أحقٌّ أن نحَّاتي هيكو لم يُجسِّموا ، قط ، هيئةَ شخص من هيكو ، بل تعمَّدوا نحتَ شخوص من مصادفات خيالهم؟» ، قال هَادِدْ ، والي هضبة سِينداكا . عمَّ الصمتُ برهةً . تبادل القاعدون والواقفون بذورَ اللاّدرايةِ بعيونهم .

نزع ديامين وشاحه الأصفر الطويل عن عنقه ، ولفَّ به رأسه كعمامة متفكِّراً : «إن جسَّم النحاتون شخوصاً في تماثيل نطقت التماثيلُ ، وتحرَّكت ، فهل يتوافق شخصٌ حيٌ مع تمثاله في تدبير مخاطباتٍ ، وعلاقاتٍ؟ أيةُ مهنةٍ ستترتب على تمثال؟ أهي مهنة الشخص الأصل ، أمْ نقيض مهنته؟ التماثيل تولِّد لأنفسها ، بأنفسها ، مراتبَ من أحوال العقل ليست طوعَ علوم الشخوص المنقولة عنها . ربما لهذا لا يجسِّم نحَّاتو هيكو هيئاتِ أناسٍ من هيكو ، حتى لا تتفشّى مفارقاتٌ ساخرةٌ بين الأصل وتمثاله» .

«ألا ترون أننا نعرف عن هيكو ، ومذاهب النحَّاتين في هيكو ، وعقول أهل هيكو ، أكثر مما يعرفون؟» ، قال يورابات . فتح راحتي يديه محدِّقاً إليهما : «أنا لم أفكر إلا بالنّول الصغير ، وعقل خيوطه ، ومخاطبات اللون للون . نقلتُ قلبي إلى يديَّ ، وأريد البقاء هكذا» .

«لو قُيِّض أن ينحت أحدهم تمثالاً لي لما مانعتُ . فلتكن له العلوم التي تغيظني ، أو تهينني ، أو تعجبني ، أو تُبَلبِلني . لكنني سأصحبه معي إلى المجالس ، والأسواق ، والكروم ، ومعاصر الزيت ، وصيد السمك في نهر كوفالو» ، قال جوكاب ، والي هضبة كيْنْسي .

«في الأرجح أن لعقلاء هيكو حكمةً في ألاّ يتصرّف النحّاتون بما تريد لهم أن يتصرّفوا ، أيها المبجّل جوكاب» ، قال ديْرَاري ، والي هضبة سَنْسْ .

« ليس عندنا نحّاتون . الحمدُ للطبائع الأزلية في ثاروس» ، قالت دْرِيْنْ ، ناظرةُ معاصر هضبة روفا . ابتسم لها الوالي كيمو : «فلنتّفقْ على حدٍّ وسط مع المبَجَّل جوكاب : لتكُنْ لهيئاتنا رسومٌ نافرة في الحجر بلا تجسيم كامل . إذ ذاك لن تتحرّك المحفورات . لن تتكلّم» ، والتفت إلى ديامين : «ياخازن الفؤوس القدير ؛ لامفارقاتٍ ساخرةً ستتفشى في مجالس الهضاب» .

مشى ديامين ، ذو الندبة الطويلة في وجهه ، من الصدغ الأيمن حتى شفته السفلى ، حتى جاور إحدى ناظرات المعاصر . جلس لصقها على المقعد : «ألايكفيك أن ترى نَفْسك في المرآة ، أيها المُبجل جوكاب؟» .

«لاأثق بالمرآة» ، ردَّ جوكاب . نقل بصرَه بين الوجوه يتحرّى أثرَ كلماته . استرسلَ : «المرآة أمينةٌ إنْ واجهْتَها بهيئتك . و تغدر بك حين تبتعد عنها» .

قاطعه ديامين : «لاتُبارحِ المرآةَ ، إذاً . إبق جالساً أمامها . فليحملْ عمالٌ تستأجرُهم لك المرايا ، يمشون بها من حولك إنْ مشيت ، ويثبّتونها إنْ سَكَنتَ» .

«أيُّ إله هو إلُهك اليوم ، أيها الخازن ديامين؟ إلهُكَ يعتصر لك

عنبَ خياله الحامضَ الحلوَ . أريد نصفَ تجسيم لهيئتي ، لاغير» ، قال جوكاب . تكلَّم ديامين الحليق الشاربين في وجهه المُحاط بلحية حَسَنة التشذيب : «تريد نَفْسك مرآةً ثابتةً عليك ، وأنت لاتثق بالمرآة» . دقَّ بعقب حذائه الجلدِ الرقيق على الأرض في خفوتٍ .

هزَّ يورابات رأسَه يائساً من اشتغال عقله على المُحاوَرات . دار من حول نوله : «أترون نسيجي؟ لاأعرف أين أمضي بهذا الشَّكل المُبهم الشبيه برؤيايَ ؛ بهذا الدَّفْقِ الهيولى ـ حلمي الذي يكتمل الآن بتوريات ديامين ، ورغبات جوكاب . أترون نسيجي؟» ، قال بصوتِ الحائر .

«فلنسأَلْ ثادريميس ، أيها القاضي» ، قال نيساد ، والي هضبة فرنين .

«مَنْ؟» ، ساءله يورابات مستوضحاً ، فردَّ الوالي النحيل ، الأحمر اللحية : «تمثالُ المرأةِ النحاتُ في هيكو» .

«أوه» ، همس القاضي ، وأردف : «أنت ذاهب إلى هيكو ، إذاً» ، فردَّ نيساد :

ـ بل نأتي بتمثال المرأة إلى ثاروس .

«أستشتريها من القاضي ميناذي؟ هم لايبيعون تماثيلهم ، أيها المُبَجَّل» ، قال يورابات . نهض الوالي كيمو . تقدَّم من نَوْل القاضي ، متصنِّعاً تأمُّلَ الشكل المبهم ، اللامكتمل ، في النسيج : «زحامٌ لونٌ ، أيها القاضي يورابات» . مسَّ الخيوطَ بسبَّابته : «هَلاَّ أعطيتنا خَتْماً من

أختامك يحمله رسولٌ إلى هيكو؟» .

بطيئاً استدار يورابات إلى نيساد كأنما يقيسُ المسافةَ الخفية بين الكلمات ومعانيها : «تريدون ختماً يحمله رسولٌ إلى مَنْ؟» .

«إلى قاضي هيكو» ، قال الوالي ماكريس الشديد البياض ، فارتعش الهواءُ في حنجرة يورابات : «أيُّ طَلَبٍ تزمعون حَمْلَه مع الخَتْم إلى هيكو؟» ، فردَّ نيساد : «نطلب تمثال ثادريميس» .

أشعلَ العبثُ شرارتَهُ الباردةَ أمام عينيْ يورابات . احتدمت الحروف على لسانه : «منذ متى نسأل القاضي ميناذي أن يَهَبَنا من متاعِ أرض هيكو؟ أنتم ، أيها الولاةُ ، اخترتم آلهتكم اليومَ بأملٍ مُرْتَجَلٍ» . استدار بوجهه إلى الحائكات سِيْنْدو ، لاَلْ ، نُوْنِيْهْ ، هِنْكِي ، المنشغلات بأنوالهن الكبيرة . نادى بصوتٍ مضبوطٍ على فراغ الإيوان : «أيتها الجميلة لاَلْ ، ابعثي إليَّ مع ابنتي رابونا بعضَ الخيوط الصفراء» . جلس على مقعده أمام النول : «سأعيدُ بعض التوازن إلى هذا الشكل المتخبِّط في يقينه» .

ارتفعت طقطقاتُ الأمشاط في الأنوال الخشبية . لم يتكلم أحد .

الخَتْمُ

النحلُ الذي حطَّ على الفاكهة ، في سوق هضبة نِيْنْ ، بدا دائخاً ، بطيئاً ، في الخريف المنسوج نسجاً مُحْكَماً على أرض ثاروس . لقد تأخرتْ تلك الخلائقُ المسكونة بعبث العسل في تقدير الدورة الفلكية قليلاً ، أو عاندتِ الدورةَ الفلكية قليلاً . كان حريًّاً بها أن تلتزم البقاء في قُفرانها ، تحت أكواخ الطين المتناثرة بين شجر الكينا ، ومداخل الكروم ، حول الهضبات الثماني .

جاهد الباعةُ في طرد النحل بمذبَّات من شعر الخيل ، حين عَلَتْ صرخاتُ جاجيليو محتدماً ، غاضباً كرعدٍ ، وهو يجر حصانَه من رَسَنه إلى عَرْضِ السوق : «عُدْتُ إليكم بالعار . أنتم مُهانون ، ياأهل ثاروس . أنتم فَساء أهل هيكو ، ياأهل ثاروس . أنتم مسلوخون . جلودكم الجديدة هي الذلُّ ، ياأهل ثاروس» . ترك مقودَ جواده وانهار على ركبيته . تمرَّغ في تراب السوق ذي الذاكرة المفتَّتة من عبور النِّعال .

تحلّق الأولاد حول جاجيليو هازئينَ ، ساخرينَ ، صاخبين . فيما لم يكترث الكبارُ به أكثر من هزِّ رؤوسهم شفقةً عليه . هدأ جاجيليو . نهض عائداً إلى الإمساك برسن جواده ذي العينين الخضراوين . نفض الترابَ الرطب عن ركبتي سرواله الواسع . رفع يده اليسرى عالياً : «هذا خَتْم القاضي يورابات . أريتُ قاضي هيكو ختمَ القاضي يورابات ، فلم يعطني تمثالاً . أذلَّ القاضي ميناذي هذا الخَتْمَ . أذلَّكم ياأهل ثاروس» .

دار الأولاد من حوله يشدون ذيل عباءته مرةً ، وذيلَ حصانه مرةً . لم يُعِرْه الكبارُ التفاتةً . ألقى جاجيليو ببصره - بصرِ الخيبة - على السوق المحتشد . انفرجتْ أسارير الغمِّ في جبينه إذْ لَحَظَ ديامين يصحبه ربنو ، والي هضبة كوماس ، ولفيفٌ من أمراء الآبار . هُرِع إليه : «ياخازن الفؤوس ، أتعرف ختمَ مَنْ هذا؟» ، وفتح راحة يده أمام عيني الرجل الممتلىء ، ذي النُّدبة الطويلة في وجهه من أثر ضربةٍ . أمسك أحدهم بمعصم جاجيليو : «ألم تجد من تعابثُه غيرَ ديامين؟» ، قال ضاحكاً . توقف ديامين وهو ينظر إلى الختم النحاسِ النابض بالنقش النافر لشجرة الزيتون ، وسنبلة الشعير ، والنحلة . التقطه من راحة جاجيليو : «من أين جئت به؟» ، ودار بالقطعة النحاس على اللفيف حوله : «هذا من أختام القاضي يورابات» . حدَّق إلى وجه الرجل النحيل ، الممسك برسن جواده : «من أعطاكَ . .» . صمتَ برهةً : «أسرقتَهُ؟» .

«لا» ، قال جاجيليو بنبرة احتجاج واستنكار : «أنا لاأسرق ختمَ القاضي» ، فهدَّأَهُ ديامين : «إنني أستوضحك هذا الأمر أيها العزيز جاجيليو . فقط أخبرْني كيف حصلت عليه» .

«أنا رسول القاضي يورابات . مَنْ يحمل ختمَ القاضي يورابات يكُنْ رسوله . أليسَ كذلك؟ . أنا رسول القاضي . معي الختم» ، قال جاجيليو لاهثاً في محاولته إقناعَ العيون المحيطة به في صخبٍ مستحوذٍ .

«أنتَ رسوله» ، قال ديامين مخفِّفاً من ارتباك جاجيليو . ابتسم له . «كنتَ رسولَه إلى مَنْ؟» .

«إلى القاضي ميناذي ، في هيكو . طلبتُ تمثالاً فأعادني خائباً . لقد أهانَ الختمَ» ، قال جاجيليو بلسانِ العقل الذي روَّضتْهُ الخِفَّة .

«طلبتَ من قاضي هيكو تمثالاً!؟» ، دمدم والي هضبة كوماس . «أيُّ إله إلهُك اليوم ، أيها العالِمُ جاجيليو؟» ، ساءَله مستقرئاً نجمةَ البلاهةِ الرحيمةِ في عيني المُمسك برسن جواده ، فردَّ جاجيليو : «السوقُ إلهي اليوم . اخترتُ السوقَ» ، وصمت راضياً عن جوابه .

«السوق!!» ، تمتم أحد أمراء الآبار . «السوق برمَّته؟ لقد سبقتنا ياجاجيليو ، بالكمال الذي خصَّك بأختامه كلِّها ، إلى إلهٍ لم يخطر ببال أحد» . ضحك اللفيفُ الواقف . مشى ديامين فمشوا . بقي جاجيليو إلى جوار ديامين بجواده ينتظر ، في فضولٍ ذي طنينٍ ، ما سينبتُ على لسان خازن الفؤوس . نبتتِ الكلمات : «مَنْ أعطاك

الختم؟» ، قال ديامين في هدوء . أبقى جاجيليو عينيه ثابتتين على رسن جواده . ارتفع صليلُ أجراس البغال التي تجرُّ عربات ملآى ببراميل الماء ، يؤتى به من بئر الهضبةِ أسفلَ السفح الجنوبي . لكل هضبة بئر واسعة الفوهة ، مرصوفة الحواف بالحجر الأبيض ، تُرفَعُ منها المياه ببكراتٍ أربع ، وتُحمل عبر طرق مرصوفة بدورها ، متعرِّجةٍ صعوداً ، إلى ساحات البيوت . وحده برجُ القاضي يورابات ، وبيوت أمراء الآبار المجاورة للبرج ، ومساكن العقلاء ، والقديرين من أئمة خطط الحروب المهجورة ، ودور المغازل ؛ ـ وحدها اقتصر موردها من الماء على خزَّانٍ ضخمٍ حجرٍ مطليٍّ بأخلاطٍ من الصمغ المُذاب ، والمطاط المُسْتَحْصل من حَمَأٍ أسودَ يتسرَّب من شقوقٍ في جبال كوربين . كان ينبوع صغيرٌ ينبثق ، على نحوٍ غير معهودٍ في التلال الكبيرة ، من أعلى السفح الشرقي لهضبة نين : ماءٌ آثر القاضي أن يحصره عَذْباً في خزانٍ ضخم هناك ، لولبيٍّ ، ارتفع عن سطح الهضبة ، كي يجري في أقنيةٍ رقيقة ، إلى بِرَك البرج ، والمنازل الخاصة : صُنع معبرٌ متدرِّج الصعود ، من أصل النبع إلى الخزان المرتفع ، حيث يتولى أربعون رجلاً ، في ثلاث ساعات من اليوم ، تمرير الدِّلاء ، من واحد إلى آخر ، حتى أعلى الخزان فلاينقص الماءُ شبراً ، تحت رقابة أميرِ بئرنيْن .

أفسح اللفيفُ فضاءً لعبور العربات الثلاث ببراميلها إلى منازل الهضبة . «سأعود إلى يورابات» ، قال ديامين ، الموكول بحفظ الفؤوس في أقبية البرج ، منذ حوالى عقدين . كان في العقد الثاني من عمره

حين انحسرت شهواتُ الحرب عن الآفاق الدائرية كخاتم في إصبع الجنون . أنجزتِ المذابحُ إحصاءَ الأقوام الموكلة بمهمَّة الأفول ، متغاضيةً عن ثاروس الناجية وجارتها هيكو . منذ شبابه حمل ديامين نُدبةً تركتْها حَرْبةٌ في وجهه . ولبراعته في رمي الفأس رميةً قاتلةً عن بعد مائتي ذراع خصَّه مجلس الهضبات الثماني بخَزْن الفؤوس مستريحةَ المعادن ، مصقولةَ الشفرات بالزيت ، في سراديب البرج . تزوَّج ديامين ابنةَ أخت يورابات . أنجبَها أربعَ إناثٍ بلغن فتوَّةَ عمرهنَّ ، وذكريْن بلغا الصِّبا . وحده ظلَّ يحمل ، من بين أهل ثاروس ، فأسَه القصيرة المقبض متدليةً من خاصرته ، تحت العباءة الواسعة ، التي خَفَقَ ذيلُها في استدارته عائداً إلى إيوان القاضي الحائك .

لم يُعِرْ يورابات الختمَ ، الذي حمله ديامين محفوفاً بالحيرة ، أكثر من تعليق شاحبٍ : «لن نستنطق جاجيليو الأبلهَ ياديامين . كان حرياً بك أن تترك الختم له ، يعبث به كيف يشاء» . ضحكَ . «ماذا نفعل بهذه الأختام على أية حال؟» .

في المساء ، تحت المشاعل الكبيرة ، القوية في نَحْتِ الظلال ومحوِها ، نبشَ الوالي ربنو حديثَ الختم المدفون في النسيان العابر . هو ، وثلاثة ولاة ، وثلَّة من مُرَبِّي النحل ، وبعض الصاغة والعقلاء المتفكِّريْن في أحوال العَدْل والمواريث ، اجتمعوا على عشاء القاضي يورابات . تفحَّص ربنو بعينيه أنحاء المائدة الطويلة ، وبعضَ منافذ الإيوان التي اتخذتها النساءُ مجالسَ متفرِّقة ، «لأرى ديامين» ، قال .

ثبَّت بصرَه على القاضي : «أَسَألَكَ خازنُ الفؤوس في أمر ختمك ياسيدَ برجِ نين؟» .

«تعني الختمَ الذي أسقطتْه الريحُ في يدي جاجيليو» ، ردَّ يورابات رافعاً حاجبيه باستغرابٍ ساخرٍ . «كيف وصل الخبرُ إليك؟» ، فأجاب ربنو : «كنتُ مع ديامين حين أخذ الختمَ من الأبله» .

«لستُ مزمعاً أن أقتل الأبلهَ» ، قال يورابات . ضحك مضيفاً : «في نيَّتي أن أمنحه ختماً آخر» .

لم يعبر المزاحُ بخيطه الرقيق إلى مغزلِ قلب ربنو . مضغ قطعةً من كبد الأرنب المشوي في آجُرٍّ يُدْفَن تحت الجمر ، ثم ارتشف نبيذاً من قَدَحه الأزرق : «أتظنُّ حقاً أنه حمل الختمَ إلى هيكو؟» ، قال بصوتٍ المتوسِّل سماعَ مايُعيْنُه على الانتقال إلى سطر المُساءلة الثاني . حدَّق إليه القاضي يورابات : «سأكون متأكداً حين أُحَمِّلكَ ، أنتَ ، الختمَ إلى هيكو» .

قبل ظهر اليوم اللاحق ازدحم إيوان القاضي بالولاة السبعة ، والمُقرَّبين من الولاة ، وحضورٍ نَمَا إليهم ، منذ الصباح ، شيءٌ مختلطٌ من خبر الختم . حتى الذين حملوا معهم مُعْضلاتٍ يتوجَّب فضُّ المنازعات فيها بالأحكام ، آثروا التريثَ في عرضها على يورابات ، متوجِّسيْنَ من هيئته : سأمٌ واستنكارٌ غَلَبا حركةَ عينيه المُطرقتيْن ، وهو مستند بكتفه إلى عمود قريب من النَّول واقفاً ، يجاوره ديامين ممسكاً بطرفَيْ وشاحه المتدلي من عنقه . «سأعضُّ على الشرارة ، التي أوْرَيْتَها

في صدري ، أيها المُبجَّل كيمو . كيف تهيَّأَ لك أنني أوفدتُ جاجيليو إلى قاضي هيكو؟» ، قال ، فتكلم والي هضبة روفا الرماديُّ اللحية : «قيل لي ، ياسيد هضبة نين ، إن جاجيليو نفسه نطق بذلك . وماسألتُك إلاَّ لتبدِّد ماأَشغلني» .

«في الأرجح أشْغَلَكَ جاجيليو بما يجعلني أبدو معتوهاً» ، قال يورابات . فرفع كيمو يده بتلويحة اعتذارٍ : «حاشَ لك . لكنْ أشغلني ، بحقٍّ ، أمرٌ آخر : ماذا لو أن جاجيليو قد ذهب بالختم إلى هيكو ، وردُّوه خائباً في ماطلبَ؟» ، فصفَّق يورابات بيديه تصفيقاً يكتم غضبه : «لوجاءك أبله مثل جاجيليو ، لاأحد معه ، حاملاً ختم أبيك يطلب قِرْبَةَ زيت ، أتعطيه قربةً؟» .

«أُعطيْه قربتيْن ، لو حمل خَتْمَ أبي إليَّ» ، قال الوالي نيساد ، الأحمر اللحية . تكلم ديراري ، والي هضبة سَنْس : «نحن في أمر الختم هنا ، ياسيد هضبة نين ، وليس في أمر حامله» ، تمهَّلَ قليلاً ، وأردفَ : «الختم ختمك» .

«أتظنون ، حقاً ، أن جاجيليو حمل ختم القاضي يورابات إلى هيكو؟» ، ساءلهما ديامين . مطَّ عنقه يتطلع إلى منافذ الإيوان : «أيستطيع أحدكم أن يأتينا بالأبله؟» . عَلَت أصواتُ الأولاد : «نحن نأتي به» . وقد جاءوا به ، يتهامسون من حوله : «أطلبتَ التمثالَ ولم يعطوك؟» ، فيما يصرفهم بيده ـ يدِ الرسول المخذولة ، محتدماً : «أنا حاملُ الختم ، أهانني قاضي هيكو» .

اقترب ديامين من جاجيليو حاملِ الشرارة الخرقاء إلى قشٍّ لايُرى : «ها أنا أكرر عليك ثانيةً ، أيها العزيز الطيب جاجيليو : أذهبتَ بالختم إلى هيكو .؟» ، قال بلسان الاستدراج الهادىء ، فردَّ العصبيُّ الوجه ذو اللحية المدبَّبة : «لمستُ بيدي تمثالَ المرأة البرونز ؛ التمثالَ النَّحاتَ ، ياخازن الفؤوس ديامين . اسمُها ثَادْ . . رِيْمْ . . يِسْ . قال لي قاضي هيكو كلاماً لم أفهمه . قال : يريدُ مقايضة أرض هيكو بأرض ثاروس . يأتي هو إلى هنا ، ونهب نحن إلى هناك . قال ذلك وضحك . قال لي : عُدْ . قال : كُلْ شيئاً ، وعُدْ . لم آكل شيئاً من زاد أرض هيكو . عدتُ بلاتمثال معي . أقسمُ بالماءِ ـ إلهي أنني أريتُه الختمَ» .

«مَنْ أرسلك ، ياجاجيليو؟» ، ساءله جوكاب ، والي هضبة كينسي ، فردَّ العصبيُّ النحيل : «أرسلني الختمُ» .

دار القاضي يورابات على الوجوه بعينين ساخرتين . رفع كتفيه يتلمَّس بهما العبثَ الممسك بالهواء : «أرسلَهُ الختمُ!!!» ، قال ، واستدار إلى نَوْله متمتماً بحروفٍ يُسْمَع صفيرُها المتهكِّم : «سنقتل الختمَ» .

«اقتلْ جاجيليو» ، صرخ حشدُ الأولاد بصوتٍ واحد ، مستثارِيْنَ . فهدَّأهم الوالي هادئ ، ناهضاً . دار نصف دورة من حول جاجيليو : «مايجعل الأمرَ مُرْبكاً ، ياسيدَ هضبة نين ـ القاضيَ يورابات ، أن أهل هيكو ظنُّوكَ أهنتهم ـ ربَّما ـ بإرسال ختمٍ مع أبله ، فأهانوا الختمَ» .

احتدم يورابات : «مَنْ أعطاك الختم ، ياجاجيليو؟» . فصرَّ

جاجيليو على أسنانه . عضَّتْه الخيبةُ فعضَّها صامتاً . طقطقت الأمشاطُ الخشبية في أنوال الأخوات الحائكات . لجم يورابات احتدامه فلمس النسيجَ على نوله : «مانتكلَّم فيه اليوم يشبه اللونَ المتخبط في هذا التزويق ، الذي لاأعرف كيف أُنهيه» .

«نرسل رسولاً في موكبٍ إلى القاضي ميناذي ، في أرض هيكو . نطلب التمثالَ ونرى ردَّه واضحاً بلا لغز» ، قال ماكريس ، والي هضبة بولان . غمغم الجالسون والواقفون ، لكنهم بوغتوا بصرخة جاجيليو : «أنا حملتُ ختم القاضي يورابات إلى هيكو . التمثالُ الذي لم أجىءْ به لن يجيءَ به أحد» ، قال بفم مُزْبدٍ . أبعد الأولاد من حوله . فتح ثغرةً في هواءِ الإيوان وخرج عاصفاً تخفق من خلفه حاشيةُ عباءته السميكة .

جلس يورابات صامتاً أمام نوله ، محدِّقاً إلى النسيج ـ شقيقِ الهاوية . تنفَّس بخياله المتجهِّم مايتنفَّسُه اللونُ .

ولاءُ اللون

حمل الهواءُ رائحةَ العنب المُختمر على غصونه ، في الكروم ، إلى أعماق هضبة نين ، وأخواتها السبع الأخرى : لقد حلَّ الخريفُ الفاره ، منحدِراً بأنفاس جبال كوربين ذوات الرئات السوداء ، صوبَ السهول التي طفح فيها الثمرُ فأُهمِل لكثرته فلم يُقْطَف . انفجرت جنباتُ العناقيد بمناقير الطير ، وتغضَّن الجلد على النَّوى . جاراهُ ثمرُ الزيتون أيضاً : اسْودَّ واحتقنَ . سقط بعضه من نشوة عُصارته الناضجة ؛ بل سقط الكثير الذي يَهَب طيورَ السُّمانى شحماً أنيقاً يُثْقِلُ طيرانَها الأنيق .

غيومٌ سمينةٌ تمرَّغت في الهواء الملتمع بالزيت الأزليِّ ، الذي كلَّمت به شجراتُ الزيتون شجراتِ الزيتون .

سماءٌ سمينةٌ تمرَّغت في زيت الأرض . قطرتا نبيذٍ سقطتا من خابية الأعالي على لسان الوجود ذي الخيال الشارد .

مضغ ديامين حبةَ عنب من عنقودٍ على مائدة قاضي ثاروس ، بلا شهيةٍ .

مضغ يورابات حبَّةَ عنب ، في ثقلٍ ، بلا شهية .

كل الذين مضغوا حباتٍ من عنب الخريف ، الفائض الحلاوة أكثر مما يحتمله العنبُ ، مضغوها في ثقل ، بلا شهيةٍ ، في اليوم السادس عشر على ذهاب رسلٍ أربعةٍ إلى أرض هيكو ، يحملون ختم قاضي ثاروس ، وسبعةَ بُسُطٍ تُحَفٍ ابتكرتْها مدائحُ النسيج للنسيج بين أيدي الحائكات الأربع الأخوات .

اختار يورابات ثلاثة رجالٍ هم أبناءُ ولاةِ هضبة سينداكا ، وهضبة كُوماس ، وهضبة بولان ، ثم أَرْفَقهم بابنة والي هضبة سنس ، القديرة في إغواءِ الهواء بمغزلها : حمَّلهم كلماتِ اللسان المُمتنِّ لمقام المُخَاطَب ، وحَصَر طلبه في أمر واحد «نريد تمثالاً نترك اختيارَه لحكمتك ، أيها القاضي ميناذي ، المؤتمَنُ على أرض هيكو . ستُبْهجون إيوانَنا» .

نأى يورابات عن تحديد تمثالٍ بعينه . تجنَّب ذِكْرَ المرأةِ البرونزِ النحَّاتة . كانت نفْسُه تتقلَّب قَلَقاً من أن يرى سياقاً من الصور ناقرةً في لوحِ متاهتها ـ متاهةِ الثَّباتِ الحجريِّ . كان قلبُه يتقلَّب في جهات صدره الأربع حَذَراً من أن يرى التماثيلَ متطفِّلةً على خياله . «حبذا لو أعطاني قاضي هيكو نصفَ حجرٍ ـ بقيةً من نَحْتٍ غير مُنْجزٍ ، لقبلْتُ عطاءَه ، وأخرستُ الولاةَ ، ياديامين» ، قال يورابات لخازن الفؤوس في بوحٍ لاشهودَ عليه . لكنه ، في اليوم السادس عشر على غيبة رُسُله ،

بدا منهوباً من تَبِعةِ المعاني الساخرة ، فوبَّخَ الآلهةَ التي اختارها لأيامه الستة عشر تلك ، منذ برهةِ توكيلهم بالمهمَّة حتى برهةِ مَضْغه حبةَ العنب في ثِقَل كمضغ القصدير : «ما كان ينبغي إرسال أحد إلى هيكو . لقد فتحنا ثغرةً لهبوب الغامض ، يادیامين» ، قال بصوتٍ محفور على لوح من لحم ، فردَّ ديامين :

ـ لم يكن تجَنُّب ذلكَ ممكناً ، ياسيد هضبة نين . لو تركتَ الفضولَ يتفاقمُ لتفاقمتْ حِيَلُ الخيال .

أَفْرَط الترقُّبُ في شدِّ المعاني ، المحبوكة من غياب الرُّسُل ، فانفرطَ عقدُ المعاني : حمل الولاةُ إلى إيوان يورابات توريات الحديد المصقول ، ونثروا الرنينَ : «لانرى في النجوم إلاَّ وميضَ الإهانة . سنأخذ هيكو . سنخلعها كالكُرَّاث من الأرض ، وسنتأمَّل الهاويةَ التي تحتها ، في الفراغ المعفَّر ببعض التراب . سنهيلُ الترابَ على هيكو ـ محميَّةِ الروح الصلبة» ، قالوا ، فصار العنبُ مرًّا في فم يورابات : «ماذا لو ننتظر ، أيها المُبَجَّلون ، بضعة أيام؟» ، ساءلهم باردَ اللسان ، فردُّوا : «بيننا وبين هيكو مسيرة يومين . إن لم نلتقِ الرسلَ في الطريق فما مِنْ طريقٍ سيسلكها أحدٌ إلى هيكو ، بعد ذلك . إبقَ هنا ، ياسيد هضبة نين ، وسنعود إليك بأقدارٍ تُنعش اللونَ على هذا النَّوْل» ، مشيريْنَ إلى النسيج القَلِقِ كقلقِ الشكل الذي يتخبط في خيال يورابات . لكن القاضي ، مُذْعِناً ، سرد عليهم سطورَ الإرث بلسان المُؤْتَمَنِ : «منذ متى يتخلَّف أحدٌ عن حرب تخوضها ثاروس؟» .

وزِّعتِ الفؤوسُ عن يد خازنها ديامين . حُمِّل الماءُ ، والخبزُ ، والعنبُ ، والعسل ، والدجاج ، في العربات . فرسانٌ ، وراجلون ، تجاوروا . نساء ، وأطفال ، وحيواناتٌ ، سلكوا الطريق إلى هيكو . الحائكاتُ الأربع ، الأخواتُ ، صَحَبن أنوالهنَّ معهنَّ ، محمولةً على محفات خشبٍ تجرها البغال : لقد أقسمن بآلهة يومهنَّ ذاك أن يُنجزن مشهدَ هيكو قبلَ أن يُنهي المحاربون دفْنَها . وقد نصبن أنوالهنَّ ، بحقّ ، على مشارف القلعة الطين ، ذات البوابة الحجرية المتشعبة المداخل ، على مقربة من الخيام الكثيرة ، التي نصبت على عجل لتضمَّ عيالَ المحاربين ، ومتاعهم .

لم تتوقف الأمشاطُ الخشبية عن رصِّ الخيوط على الأنوال ، في العراء . عرقَتْ أيدي الحائكات الأربع منذ الفجر البارد حتى المغيب البارد . رأيْنَ دخاناً يعلو سورَ القلعة الطين ؛ دخاناً أخرسَ لم يحمل معه ، إلى عتبات السهل الشاسع ، صرخةً ، أو أنيناً ، لكنهن أصغينَ إلى الخيوط المروَّضة تقدِّمُ ولاءَ اللون للأشكال ، فتوزَّعْنَ الأشكالَ كما يرَيْنَها ويتخيَّلْنها : سورٌ منهار . قلعةٌ حريقٌ . موتى محمولون عالياً بين براثن طيورٍ غير مكتملة . جياد مقطوعة الرؤوس . بعضُ زهور بيضاء وصفراء في زوايا النُّسُج ، شاهدةٌ بأَلَقها على فوز محاربي ثاروس ، الذين انكشف عنهم الفجرُ التالي منحدريْنَ من طريق القلعة إلى السهل ، في مشهد مُتْرَفِ الإنشاء ستعيدُ أنوالُ الأخوات الأربع الحائكات ترتيبَه ، وَفْقَ التَّرفِ ذاته ، حيَّاً يتنفَّس كما يتنفَّس اللونُ :

تسعةُ تماثيل تمشي صفّاً ، مُطْرِقةً ، وديعةً ، مستسلمةً ، بأعمق أعماق معادنها ، إلى تلك السلاسل الطويلة ، الممتدة من أصفادٍ في أقدامها إلى أيدي الخُفراء يقودونها بلاداع إلى تقييدها . وقد بدت المرأةُ البرونزُ ، ثادريميس الطويلة ، ملتفتةً بوجهها قليلاً صوب الحائكات ، كأنما عيناها ، اللتان بلاحدقتين ، تتأمّلان أنوالَ الهواءِ الساخر .

عودةُ الحَجَر إلى خياله

«منذ نَهَبْنا هيكو ، وأنا أحلم حُلْمَ فرسٍ» ، قال ديامين للتمثال البرونزِ ـ المرأةِ ثادريميس . فساءلتْهُ بلسانها ذي الصرير : «وماأدراك أنه حلمُ فرسٍ؟» .

«نصفُ أنثى آدمية ؛ نصفُ فرسٍ . رأيتَ رسْميَ ، الذي تنحتينَهُ ، بين يديها ، وهي تسألني : أأنت أوْرْسِيْنْ؟ . أنا أحلمُ حلْمَ فرسٍ» .

«كيف تعرف أن الجياد تحلم على هذا النحو؟ إنه حلمُك ـ حلمُ خلائق الخوف» ، قالت ثادريميس ، وهي تحفر بإزميلها بعضاً من أعضاء ديامين ، عاريةً ، على لوحٍ حجريٍّ .

في اليوم الثالث من سبي التماثيل التسعة حسمتْ ثادريميس خيارَها : أن تنحت رسماً نافراً لخازن الفؤوس ديامين . كاد الولاة أن يشقُّوا أوشحتَهم ، وأردانَ معاطفهم غيظاً . لقد تباروا في الاقتراع على مَنْ سيكون الأول في سجلِّ ثادريميس الحجري ؛ مَنْ سيكون الهبَةَ

الأولى لشكلٍ آدميٍّ من ثاروس إلى خزانة الحجر الأمينة ؛ مَنْ سيكون مرآةَ نَفْسِه الثابتةَ على شكلٍ ينتقمُ من الوقت . لكن ثادريميس فاجأتهم بما لم يخطر ببالهم ، ولم يتحوَّط له خيالُ أهل ثاروس : «أنا أختار لنحتيَ مَنْ تتطابق صورتُه مع الصدى ، الذي لا يبرح أعماقيَ المجوَّفةَ . أتسمعون الطنينَ؟ مُذْ أوجدني أبي سِيزْيَاس النحاتُ الآدميُّ سَبْكاً من البرونز ، أوْدَعَ أعماقي المجوفةَ قلباً مجوَّفاً فيه صَدَفةٌ سوداء فيها لؤلؤةٌ نقشَ عليها اسم البحر بحروفٍ قوم من جبال كوربين : موجةٌ تمحو موجةً بتكرارِ نسيانها أنها موجةٌ تمحو موجةً . أتسمعون صدى الموج في أعماقي؟» ، قالت بلسانها ذي الصرير ، فاعْتَكَرَ الولاةُ . أبدوا استغرابهم ممَّا لم يفهموه : «ماذا تعنين أن تتطابق صورةُ الآدمي مع الصدى؟» . قهقهوا في غضبٍ : «أيُّ صورٍ تتطابق مع أصداء ، والأصداءُ ليست صوراً؟!! كلماتُك ساخرةٌ أيتها المخلوق المعدنُ» ، قالوا ، فردت ثادريميس ذاتُ الثياب النَّرَرَد المعقودةُ الشعر كذيلٍ طويل : «في تقاليدنا أن تكون للكلمات مَطْهَرٌ معدنيٌّ . خارجةً من المَطْهر تغدو الكلماتُ هواءً كالذي تتخاطبون به . لسانُكم هواءٌ» .

«نتحدثُ بلسانِ هواء؟» ، ساءلوا أنفسهم بصوتٍ مستهْجِنٍ . «ليكُنْ . مَطْهرٌ معدنٌ ، هواءٌ ، ترابٌ . ليكنْ . أمَّا أن تختاري ديامين لنحتِ رَسْمٍ له فأمرٌ يتوجب توضيحاً لاتوريات ، ياثادريميس» ، قالوا . والتفتوا إلى ديامين : «ألا ترى بعض السخرية في هذا ، ياخازنَ الفؤوس؟ كيف اتَّفق لخيالِ الوجود أنك متطابقٌ مع صدى أعماقها؟» .

كـتم الولاةُ ثورةَ أعـمـاقـهم . لكنهم ، في خلواتهم ، تهـدَّدوا وتوعَّدوا : «سنعيد ثادريميس فلزّاً خاماً ، مُذاباً ، شائباً كحال إسْطَقسِها الهيولى» . وفي خلوة ديامين بالتمثال النحَّات فاتحها بسؤالهم حول السخرية في ما قالته عن تطابقه مع الصدى : «لم أفهم شيئاً ياثادريميس» ، قال ، فردَّت بلسانها ذي الصرير : «الفرسُ ، التي تحلم ، أنتَ ، حُلْمَها ، ستفهم هذا ، ياخازن الفؤوس» .

في أحد الأبهاء الدائرية ، المتفرِّعة بمعبرٍ صغير عن إيوان يورابات ، انكبَّت ثادريميس على لوحٍ حجري مستطيل تنحت عليه شكل ديامين عارياً ، يحيط برأسه طوق رقيق . «سأجعل لهذا الشكل النافر ذاكرةً» ، قالت . «سأكرِّرك في الحجر كي تتعاقب ذاكرتُك انتقالاً من رسم إلى رسم ، في دورة لاتنتهي . سأعيدك ذاكرةً نسياناً في النحت ، ياديامين . النسيانُ ذاكرتُك . ستكون حرّاً في هذا اللوح . ستقود نَفْسك متعدِّداً تنسى أنك لن تتذكّر ذاكرتَكَ . في هذا الرسمِ الحجرِ تعود إلى خيالك منسيّاً . أنت مفقود ، ياديامين . سينتحر رسْمُكَ الحجرُ من شدَّة حريته» ، قالت باستطراد متنافر السياق خلطَ على ديامين اقتفاءَ أثره . «أنتِ تنقلين فراغَ أعماقك المعدنيَّ إلى نسيجي . لي ذاكرةٌ تكفيني ، لاأريدها ممتلئة أكثر ؛ ولي نسيانٌ يكفيني ، لاأريده أن يأخذ كل مالاأريد أن أتذكَّره . أنا كفايةُ نَفْسي هكذا ، ياثادريميس . سأحتمل ماأريد وما لاأريد» ، قال . تأمَّل وجهها العالي جاثيةً على ركبتيها : «تجعليننني قَلِقاً» .

«سألتقطُ رَسْمَكَ بشبكة الحجر قَلِقاً ، ياديامين . ثاروس هي آخر حدودِ السماء» ، قالت ، فارتعدت عضلةٌ في فخذ خازن الفؤوس . طوَّقتْه بعينيها الكتيمتين بلا حَدَقٍ : «سيتذكَّرك نحتُكَ بذاكرته هو ـ ذاكرةِ الرسم النافر في الحجر» .

لبس ديامين عباءته على جذعه العاري . تقدَّم من ثادريميس : «ماحديث الذاكرة هذا؟ ماحديث النسيان؟ كأنما نحن ـ مَنْ تسمِّينهم خلائقَ الخوف ـ لاشاغل لنا غير التذكُّر والنسيان . أيقلقُك شيء مَّا من هذين؟ ألك ذاكرةٌ؟» ، قال ، فردت : «يداي» .

«أأنت حيَّة؟» ، ساءلها ، فردتْ : «سيكون كلامي دورةً في مالاتفهم إنْ تحدَّثتُ عن ذلك» .

كانت ساحة هضبة نين ، وأروقة الإيوان ، والحارات المتراصة من حول البرج المخروطيِّ الكبير ، في حال عارمةِ المَرَح والفضول منذ جيءَ بالتماثيل إلى ثاروس ، وأُطلقتْ تُخالطُ الناسَ طوال النهار ، ثم تعود إلى مهجعها ليلاً ، تحت قبة من قباب البستانيين ، الذين يستنبطون الزهور الهجينة ، والخضار الهجينة بعلومهم . لقد جرى الاتفاق أن تقيم تلك المخلوقات الصلبة سبعةَ أيام في كل هضبة ، فتتقاسمَ الهضباتُ ، بالميزان العادل ، مثاقيلَ الطرائف بمشاهدة حركاتها ، ومحادثة عقولها ـ عقولِ الجمادِ الناطق . ثمانيةٌ منها كانت فاتنةً بمراتب اختصاصاتها : لامينا النحاسيُّ ، ذو الأربع الأذرع طولاً ، داهيةُ ابتكار السموم ، وكشف مستورِها في الأطعمة . سيلوبو النحاسيُّ ، الذراعُ الواحدة

طولاً ـ مدرِّبُ النحل على اقتفاء زهر الليل ، مَصْدَرِ العَسَل الأنقى في إرثِ نوعه . أهْفَأفا الحجرية ، ذات الخمس الأذرع طولاً ، مُنْشِئَةُ التقويم على أربعة عشر شهراً للسنة ، مبوَّبةً بالأسماء : تيهُ الحجر . امتحان الحجر . احتجابُ الحجر . خلوة الحجر . ضراعة الحجر . شقاء الحجر . مكيدة الحجر . ثرثرة الحجر . شِجار الحجر . سُبات الحجر . لوعة الحجر . سرور الحجر . غدر الحجر . ندم الحجر . والتمثالُ المرأةُ الحجرية نينارديس ، ذات الطول الموافق طول أهفانا ، البارعةُ في حفظ التواريخ . نِيْذِريو الحجري ، الموافقُ في طوله نينارديس ، العالم بهيئة البناء الواجب قيامُه على أرضٍ بعينها ، كي تتجانس أبعادُ قاطن البناء المرئيةُ ـ جسدُه ، وظلُّه ، وشهوته ، وخبرتُه ـ في حيِّزٍ هو حصانةُ اللامرئيِّ . والتمثال مِيْدِيْكْسَا الحجري ، الأعلى قامةً من نيذريو بذراع ، مُحَصِّلُ البراعاتِ في تدبير الهواجس لمن يكتم أمراً فيه خدعةً ، حتى يفقد اتزانه فيهذي . والتمثال سِيْسْ ، المتوافق طولاً مع ميديكسا ، العقلُ البهلوان في إنشاء المَخَامر بالإعوال على نسبة الأرواح في أهوية الكهوف والأقبية . والتمثال رُوْسَالو ، البالغ خمس أذرع طولاً ، الحصينُ المعصوم إذا قدَّر المسافات : بُعْدُ شَعْرةٍ عن أخرى ؛ بُعْدُ هضبة عن أخرى ؛ بُعْدُ نيْنَ عن جبال كوبين السوداء ؛ الغيوم عن الأرض ؛ الحرفِ عن الحرف على اللسان ؛ كل شيء عن كل شيء ، بأيِّ قياسٍ يرتأيه شخص مَّا ، حتى حبَّةِ الشعير ، أو نواة الزيتون . وقد سُئلَ ، في مجلس يورابات ، عن المسافة مابين جبال كوربين والحواضر

المأهولة التي تليها ، فردَّ على نحوٍ كالتورية : «تعنون المسافةَ بين كوربين وثاروس» . وإذْ سُئِلَ : «ماذا يلي ثاروس؟» ، ردَّ : «السماءُ ـ حدودُ كوربين» . وإذ سُئِلَ : «ماذا يلي السماءَ؟» ، ردَّ التمثال روسالو : «ثاروس ـ حدودُ السماء» . وإذ سُئل : «ماالمسافة بين ثاروس وقَدَرها؟» ، سُمِعتْ قرقرةٌ كتصدُّعٍ خفيفٍ في جوفه الصلب ، الكتيم . دار على نفسه . ردَّ : «المسافة بينَ مدخلِ أخدود تاييس ومَخْرجَه» . وإذْ سُئل : «ماأخدود تاييس؟» ، ردَّ : «بُعْدٌ من أبعاد الفراغ . حلمُ جوادٍ تنتابه كآبةٌ آدمية» .

كان شيقاً حديثُ المرأة الحجرية ، التمثالِ أهْفَافا ، وهي تعرض وسط حلقات النساء ، في إيوان يورابات ، والأبهاء المتفرعة عنه ، نقوشَ ثوبها الصلب ، الملتفِّ على ردفيها وفخذيها المستديرتين طولاً : «السماءُ على صورة هذه الخروم . السماءُ الحجرُ ، المنحوتةُ خشنةً ، في عنفٍ ، وعلى عَجَلٍ ، عليها صورٌ فوضىً . بشهيقٍ تقتربُ من الأرض ؛ بزفيرٍ تبتعد عنها» . الأخواتُ الأربع ، الحائكاتُ ، أعطين أهفافا مغزلاً كبيراً يناسب طولها الأكثر سموقاً بثمانية أشبار من جاجيليو الطويل . غزلتْ من الخيوط ، في المقصورة الكبيرة ، التي تشغلها العذراواتُ ـ مدبِّراتُ اللون ، مايكفي نسْجَ بساطَيْنِ ، في يوم واحد . سألتِ العذراواتِ العالماتِ بمحاليلهن ، لماذا لايعمدن إلى تلوين الأصواف أولاً ، قبل غزْلِها خيوطاً ، فأجبْنَ أن أمهاتهنَّ يؤثِرْنَ الصوفَ أبيضَ لم يخضع لمساءلة اللون ، ونوازع اللون ، وهموم اللون ، وشهوات اللون ، بذا

يُكنَّ عادلاتٍ في غزْله . فلو أتاهنَّ الصوفُ ملوَّناً أوْجبتْ قلوبُهنَّ تفضيلَ بعضِ اللون على آخر . والتفضيلُ يُغَلِّب مزاجاً على مزاجٍ فتنشأ الخيوطُ ، في دورة المغازل ، رثةَ الصُّنْع أو كريمةَ الصُّنع . ستتنافرُ ـ بتنافرِ الأمزجة في تفضيل الخيوط وَفْق ألوانها ـ أمزجةُ النسيج الواحد على الأنوال ، وتتمرَّدُ الأشكالُ على يديِّ القاضي يورابات ، وأيدي الحائكات الأربع .

الحائكات الأربع ـ جميلاتُ الإيوان المرتديات ، أبداً ، معاطفَ صفراء ذهبيةً ، وقبعاتٍ منتفخةً خضراء ـ ألِفْنَ أهفافا وثادريميس أكثر من التماثيل الأخرى . وتطبَّعْنَ مثلهما على استهلال كلِّ محادثةٍ بالقول : «في تقاليدنا» . كان رخيماً خروج ذلك الاستهلال من فميهما ، بالرغم من الصرير البارد للِّسانيْنِ الصلبين : «في تقاليدنا أن الرسومَ استنطاقٌ محيِّرٌ» ، ذلك ماقالته ثادريميس أولَ استعراضٍ لها للأنوال في الإيوان . «في تقاليدنا أن النهارَ مزدوجُ اليقين ، والليلَ حِرْصُ الصُّوَرِ على حيادها» . ذلك ماقالته أهفافا في أوَّل وقفةٍ لها قرب الحائكات . نينارديس ، التمثالُ الأنثى الثالثة نأتْ قليلاً عن التجوال في الإيوان والأبهاء المتفرِّعة عنه . ظلت قريبة من نَوْل يورابات : «في تقاليدنا أن للون ذاكرةَ تاريخٍ ، مثلي» . وقد جاهدتْ بنات القاضي في استدراجها إلى مقصورتهنَّ الكثيرة الستائر ، فأهملتِ الاستدراجَ ، على غير مافعلتْهُ ثادريميس وأهفافا ، اللتان استسلمتا ، لتبرُّجٍ صاخبٍ كنساء ثاروس : جلستا على الأرض أمام

البنات سِيْلُونيا ، تَأرِيْن ، والتوأمين رَابونا ، بانينوتي ، اللواتي صعدْنَ صناديقَ متاع أُمِّهن كي يَصِرْن إلى علوٍّ وجهيِّ التمثالين : جعلن حول عيونهما ظلالاً زرقاء ، وصبغْنَ فمَيهما قُرمُزاً ، وخدودهما بمسْحةٍ من دقيقٍ خفيفِ الصُّفرة إلى بياضٍ . وأسدلْنَ ، من أكتافهما ، عباءتين تغطيان التجويفين الغريبين في ظهريهما .

استرعتِ الأبصارَ ، أوَّلَ قدوم التماثيل ، تلك التجاويفُ الدائريةُ في ظهورها . في اليوم الرابع عَنَّ للوالي كيمو أن يفاتحها بفضوله ، في الإيوان . أوقفَ عينيه على أكثرها قِصَراً ـ التمثالِ سيلوبو ، مدرِّب النحل : «ماالحُفَر هذه في ظهوركم؟ ، ماالحكمةُ في إنقاصِ هياكلكم بعضاً من لُحمتها الكاملة؟» . آنذاك وجَمَ سيلوبو . رفع وجهَه النحاسَ إلى حلقة التماثيل الصامتة ، ثم عادَ فأطْرَقَ لايُجيبُ .

مسَّت إحدى ناظرات المعاصر خاصرةَ التمثال النحاسِ ، الآخر ، لامينا ، في رقَّة : «ألم يكن المعدنُ كافياً؟ عَضَلُكَ فائضٌ . ثدياك فائضان» ، وأنزلت يدها إلى الإزار المحيط بوسطه ، من الصرة حتى الفخذين . ضحك الحاضرون : «هنالك معدنٌ فائضٌ تحت هذا الإزار» ، قالت بتلميح إلى ملتقى فخذيه . لكن المَرَحَ العارض انسلَّ سراعاً بعودة لان الفضولِ إلى مساءلاته الثقيلة : «لِمَ التجاويف في ظهوركم؟» .

«هُمْ لايعرفون» ، تمتم التمثال الحجريُّ ميديكسا إلى روسالو . خرج الصدى من فمه أزيزاً تلقَّفه ديامين : «لانعرف ماذا؟» ، ساءَله ،

فأطلقتْ ثادريميس كلمةَ الحدِّ صلبةً من جوف حنجرتها : «لاشيء يعنيكم من أمر هذه التجاويف . لاتستنطقونا» .

لم يستنطق أحدٌ تمثالاً ، بعد ذلك ، عن تلك الحُفَر في ظهورها . لكن ثادريميس أجفلتْ يديْ سيلونيا ، ذات السبعة عشر عاماً ، حين أسدلت العباءةَ السوداء القطيفةَ على التجويف ، في وقفتها على صندوق : «من هنا نعذَّبُ ، أيتها الآنسة سيلونيا» .

وضعت الفتاةُ راحتَها على حافة التجويف : «ماذا تعنين؟» ، قالت بلسان القَلقِ الخافت . صمتت ثادريميس برهةً قبل أن تسترسل في شرحٍ شاحب : «تحوَّطَ النحاتون ، والسبَّاكون لنوبات عنادنا ـ نحن التماثيل ، فأوجدوا مكامنَ ضعف فينا ، هي هذه التجاويف . مُعذِّبٌ أن يوضع قفصُ ببغاءٍ رمادية في تجويف ظهر تمثالٍ معدني مثلي ، أو مثل لامينا وسيلوبو . إن ردَّدتِ الببغاءُ اسمَ أحدنا ، من ذلك التجويف ، مراتٍ ، اقشعرَّ المعدنُ ؛ اقشعرَّ خيالُنا . التماثيلُ الحجر يعذِّبها إنْ وضعَ رملٌ في تجاويف ظهورها ، وعُرِضتْ لريح الجنوب : كل ذرةِ رملٍ تجتثُّ ، في تطايرها ، شيئاً من خيالِها الحجر . عذابُ خيالها يقوِّض الروحَ الصلبة ـ روحَ الكمال المهجور . لاعذابَ يشبه عذابَ التمثال إذا عُذِّبَ . لاخيالَ قادرٌ أن يذكِّركم ببقايا شَبَه من عذابٍ تقاسمناه معاً ، نحن وأنتم ـ خلائقَ الخوف . غدوتم منسيِّيْنَ في الذاكرة الكبرى ، ولااقتدارَ لنا على إعادتكم إليها» .

ماكان في مستطاع سيلونيا ، كبرى أخواتها ، ولا في مستطاع

أخواتها أن يفرِّقن بين جدٍّ وهَزلٍ في أحاديث ثادريميس . لكن تاريْنْ ، ابنة الخامسة عشرة ، خلطت المَرَح بما لن يكون مَرَحاً في أعماق ثادريميس ، إذ ذَكرتْ ببغاءَ جاجيليو : «عنده واحدة رمادية» ، قالت ضاحكةً ، فصدمتْها أختها الصغيرة بانينوتي : «سنذبح ببغاء جاجيليو» .

«أين جاجيليو؟» ، تساءلت بناتُ يورابات . كان حرياً به أن يُشغل تسعة أمكنة مختلفة ، في تسعة أوقات ، حيثما سار تمثالٌ أو وقف . «ألم يكن جاجيليو رسولنا إلى هيكو؟ هاهي التماثيل كلها» ، ذلك ماقاله الوالي نيساد ، أيضاً ، في تذكيرٍ بغياب صاحب الجواد ذي العينين الخضراوين .

«أتَرَكْنا قَتلى خَلْفنا ، في هيكو؟» . تلك كانت جملةُ ديامين العابثةُ إذ افتقدَ جاجيليو ، بدوره ، كالآخرين . وقد طارتْ جملتُه ـ الذبابةُ من الإيوان إلى الأسواق ، فساحات الهضاب . «ربَّما قُتِل جاجيليو» ، تهامس الأولادُ أولاً ، ثم أطلقت حناجرُهم عواءَ الخبر الصبيانيِّ الطاحن : «ذُبحَ جاجيليو» . لكن اسم صاحب الجواد ذي العينين الخضراوين تبدَّد عن ألسنة المتسائلين عن الأبله المفقود ، في اليوم الرابع عشر من سبي التماثيل : تفشى عارضُ الوهن في أطراف أهل الهضبات . باتت أيديهم تتراخى عمَّا تمسك به ، وركابُهم تلينُ فتنحني في المشي ، والأجفان تتثاقل كأنْ مسَّها النعاس . سريعاً غمرتِ الرَّعدةُ الهواءَ من حول الأبراج المخروطية في الساحات الثماني

للهضبات الثماني . بيوتُ زُرّاع الحقول ، ومنازل أهل الكروم وبساتين الزيتون ، اعتُصِرتْ أولاً في قبضة العارض الغريب الشبيه بخَدَر . ولم يلبث الخَدرُ أن انكشف عن نهشٍ في أعماقِ المعتلِّيْن : تمايلوا ألَماً ، في الجهات كلها . تمايلت حيواناتهم ألماً ، ونفقَ الدجاجُ الرقيق .

على نحوٍ لم يُفهم بدت بيوتُ أمراء الآبار ، والخاصَّةِ من أهل يورابات ، والمقيمين من حول البرج في هضبة نين ، خالية من عارض الوهن . الولاةُ ، وناظراتُ المعاصر ، ونقباء ثكنات الجيش المعزولة ، الذين أمُّوا إيوان قاضي ثاروس ، حملوا معهم هَلَعَ الطبائع الأزلية ، ليجدوا الأطباءَ الثلاثة ، المُسْتَنْطَقيْنَ في أحوال الأوبئة ، على حيرةٍ بين يدي يورابات : «لاعَكْرةَ في الهـــواء . لاقلقَ في الزرع . لاريحَ موتى . في الأمر دهاءٌ يُشْكِل على أنابيقنا» ، قالوا .

ستاً وثلاثين مرةً غسل يورابات يديه في وعاءٍ فخّارٍ ونثر ماعليهما من ماءٍ في أنحاء الإيوان : «أعدِ العافيةَ ، إلهي أيها الماءُ ، إلى الصُّوَرِ . أعدِ العافيةَ إلى الظلال . أعدِ العافيةَ إلى اللون . أعدِ العافيةَ إلى خيال أجسادنا ليستحضرَ ، في يُسْرٍ ، مناشدةَ الوجود القويِّ لقُواه» . كررَ عزائمَ الرّاقي بلسان الماء المنثور . مسحَ بأنامله المبتلة على الجباه ، ولم يستثنِ التماثيلَ . ثادريميس مالت عليه بجذعها العالي لتُمكِّنه من التعزيمة ، فساءلها يورابات : «أحدث شيء مثل هذا لأهل هيكو؟» .

«لا» ، ردت المرأة البرونز . «كان لدي القاضي ميناذي أربعة أطباء

لايفوتُهم تشخيص علَّة ، أو توصيف دواء . إنْ دخلتْ فراشة إلى السرايا استشفُّوا أحوالَ بدنها» . ضربت بيدها ضربةً خفيفة على جنبها فتضاعفَ الطنينُ في جوف المعدن : «رأيتهم يُقْتلَون . لو حصل في هيكو وَهَنٌ كالذي في ثاروس ، لروَّضوا سطوتَه ، وأهانوه» ، قالت .

«قُتلوا» ، تمتم يورابات . جال ببصره على الحاضرين الممسوسيْنَ بهلع الطبائع الأزلية : «تعرفين لماذا غزونا هيكو ، وسبيناكم ـ أنتم التماثيل ـ ياثادريميس» ، قال القاضي .

«لانعرف ، ياسيد هضبة نين . لافضول لدينا» ، ردت أهفافا الحجرية ـ أمرأةُ التقويم الزمني .

«انظروا إلى المبجَّليْنَ ، ولاة هضاب سينداكا ، كوماس ، بولان ، سَنْس . أرسلنا أولادهم إلى هيكو . حملوا ختمنا ، ونسيجَ إيواننا ، وكلماتِ امتناننا المدرَّبةَ في دفئها على استثارة القلوب الكريمة ، فبمَ عادوا؟» ، قال محدِّقاً إلى عينَيْ ثادريميس . تمتم : «لم يعودوا . غزونا هيكو ولم نعثر عليهم . ماذا فعل بهم ميناذي ياثادريميس؟» .

«عمَّ تتحدَّث ، ياسيد هضبة نين؟» ، ساءلته المرأةُ البرونز ، فردَّ يورابات محتدماً : «أتحدثُ عن حزن هؤلاء الآباء . أنتِ لاتعرفين الحزن ، أيتها المرأةُ المعدن» ، قال .

«تتحدث عن رُسُل ، ياسيد هضبة نين . أيَّ رسل تعني؟ لم يحضر إلى سرايا ميناذي غير ذلك الممسك برسن الجواد ، ذي العينين الخضراوين» ، قالت .

ضربَ شرخٌ كبيرٌ كبدَ يورابات فوضع راحته على أحشائه : «جاجيليو» . نفخ الهواءَ متقطعاً من فمه : «جاااجيليو . أرسلنا جاجيليو . لم نرسل جاجيليو . يالسخريةَ إلهي الماء ، اليوم . جاجيليو الأبله» . اتَّسع الشرخُ في كبده : «أرسلنا رُسُلاً أربعةً ، معاً . ثلاثة رجال ، وفتاة ، ياثادريميس» ، قال بصت فيه نبرةُ نواح خفي .

«لم أر في سرايا ميناذي رُسُلاً أربعة . لاتمثال رأى رسلاً» ، قالت بلسانها ذي الصرير .

«إلهي ، أيها الماءُ» ، تمتم يورابات . حملَ قلبَه في عينيه إذْ نظر إلى ديامين المتكىء ، في استرخاء ، إلى عمود قرب النول . شيءٌ مُبهمٌ قاد لسانَه إلى سؤالٍ خارجَ حال الهلع : «مَنْ إلهُك اليوم ، ياخازن الفؤوس؟» .

«جوادي» ، ردَّ ديامين .

«أكلّمتَه في أمر اختيارك إياه إلهاً؟» ، قال القاضي هارباً من وساوس أحواله إلى الثرثرة ، فرد ديامين : «كلَّمتُه ، نعم ، ليس في اختياري له إلهاً ليومي ، بل عن نسله ، الذي سيستنطق صوَريَ النافرةَ في اللوح الحجريِّ ـ لوح ثادريميس» .

«بأيِّ لسانٍ سيستنْطِقُ نسْلُ جوادك صورَكَ الحجريَّة؟» ، ساءَله يورابات مبتسماً .

«بلسان الجياد الآدمية» ، قال ديامين بصوتٍ تشوبه الفكاهة .

«وبِمَ ردَّ جوادُك؟» ، ساءله يورابات .

«قال لي : قاسمْتَني حُلمي . سأقاسمُك صورتَك» ، أجاب ديامين . اعتدلَ في وقفته : «لذا اخترتُه إلهاً ليومي» .

«إلهُك مَرِحٌ» ، قال يورابات . هزَّ رأسه وهو ينظر إلى الهَلِعيْنَ في الإيوان : «إلهي ليس على مايرام . إلهي الماء» . غمس يديه في الإناء الفخَّار ، من جديد ، ورشَّ الجهاتِ بالرذاذ : «أطباؤنا موتى» ، تمتم . «أطباء ميناذي أفضل حالاً من أطبائنا . أليس كذلك ، أيتها الآنسة ثادريميس؟» ، قال في حَنَقٍ .

لم تنطق ثادريميس . دار يورابات من حول نوله يعضُّ النقوشَ بعينيه : «لو كان أطباء ميناذي هنا لأهانوا عوارضَ الوهنِ ، وأهانوا أطباءنا» .

«لاأحد يهينُ ماأصنعُهُ» ، قال التمثال النحاس لامينا ، ذو الخوذة .

وَجَمَ يورابات . تماوج أنينٌ خافت في الإيوان ، وازداد الهواءُ شحوباً . «ماالذي تعنيه ، أيها المخلوق المعدن؟» ، ساءله ديامين ، فرد لامينا :

ـ في مائكم سمٌّ صنعتُه للقاضي ميناذي . هذه أعراضُه .

تشقَّق الهواءُ ؛ انحلَّ إزارُه فتعرَّى ؛ تفتَّت ؛ سَدَّ الرئاتِ برمله الخفيِّ . نهض جَمْعٌ ، وقعد جمعٌ . لانَتْ عرائك الولاة . همهموا مُمزَّقيْن : «أسمَّمتَ ماءَنا؟ سنعيدك فلزّاً محترقاً ؛ ذَرُوْرَاً ؛ بُرادةً ؛ رمادَ معدن ؛ دخاناً ، أيها الهباءُ المعجون ، ياابن أفران هيكو» .

«لم أركِّبْ سُمَّاً في ثاروس ، بعد . لم أُسِمَّ ماءً . ماصنعتُه لميناذي ظلَّ في خزانته . إن خالطَ ماءً استشرى في الشارب بأنَّاةٍ . في اليوم السابع يجفِّف القلب» ، قال لامينا النحاسُ .

مالت وجوه الجمع ، في ثقلٍ ، صوب يورابات : «لانرى في أهل البرج ومحيطه ، عارضَ الوهن . أيَّ ماءٍ تشربون؟» ، ساءلوه متهدِّلي القلوب والقوى . عضَّ يورابات على شفته السفلى ، كأنما يعتذر ، في ألم ساحقٍ ، عمَّا دبرته الأقدار : ظلَّ خزَّانُ مائه في منجى : هكذا قدَّر ؛ هكذا عضَّه ألمٌ فعضَّ على شفته . ارتعشت يداه : « مَنْ منكم قتل ميناذي؟» ، قال بصوتٍ فيه فحيح ، فتكلم والي هضبة فرنين ، الأحمرُ اللحية نيساد : «لم ينجُ ناطقٌ أو أخرسُ في هيكو . ذبَحْنا الحجرَ الجمادَ ، والهواءَ ، في هيكو» ، قال ، فصرخ يورابات : «مَنْ منكم رأى ميناذي قتيلاً؟» .

عمَّ الصمتُ ذو الأنين . أطرق يورابات يائساً : «لاأظن أحدَكم رأى ميناذي حيَّاً فيعرفه إن رآه ميتاً» . مشى صوب نوله . حدَّق إلى النسيجِ المُعْتَقَلِ في أصفادِ الرسم القلِق : «إلهي ساخرٌ . توجَّسْتُ ذلك» ، قال .

ارتفع صريرُ اللسان المعدني ـ لسان ثادريميس : «ميناذي لم يكن في هيكو» .

إلهي ـ أيُّها السَّهل

زحف الوَشَقُ على بطنه بين عشب يابس من بقايا الصيف الراحل ، في اتجاه سرب الفواخت ، الذي حطَّ في سهل دِيْدْ . شمَّ الريشَ فاهتاج خيالُه ـ خيالُ الطبائع الأزلية . تكلَّمَ بلسان الوجود مجتمِعاً ، بتمامه الهائل ، في حروف الحيوان : «إلهي ـ أيها السهل ، ياإله كل سهلٍ آخر ، أيها السهل السهل ، الصبور ، المنبسط على الفراء ، فوق القمم الدائرية للأعمدة الستة ـ أعمدةِ الشحم الشفيف كالنُّور ؛ ياالسهلُ المُلَقِّنُ ، سأمتدحك بلسان القنائص كلها من قلبيَ المضطرب في زحفي هذا ، فكُنْ إلهَ وَثْبَتيَ اليوم ، إلهي» ، ووثبَ أربع أذرع في الهواء مندفعاً بالعضل القوي في قائمتيه الخلفيتين ، حين اندفع سربُ الفواخت هارباً ، فالتقط واحدةً منها .

«أرأيتُم مارأيتُ؟» ، قال أحد الأربعة العابرين في سطرٍ من أبجدية السهل الشاسع مستعجباً . أوقفَ جواده : «أرأيتم ذلك القطَّ

الوَشقَ؟ التقطَ الطائرَ في الهواء» .

«أين؟» ، ساءله الثلاثة الآخرون ، والتفتوا بوجوههم إلى حيث التفتَ الأول ، فلم يروا شيئاً .

«هذا تدبير من إلهك اليوم ، يابانيسْ . خيالُه وشقٌ يتصيدُ خيالَك» ، قالت الفتاة الراكبة جواداً أسود . «مَنْ إلهك؟» ، ساءلتْه بلسان عليه نعاسُ الكلمات . فردَّ بانيس ، ابن والي هضبة سينداكا : «اخترتُ سيلونيا ، ابنة القاضي يورابات ، إلهةً ليومي هذا» . اقترب منها بجواده : «مَنْ إلهك أنتِ ، اليوم ، ياسِيْسِيْنْ؟» ، ساءلها ، فردَّتْ : «اخترتُ هيكو» .

«هيكو؟!!!» ، تمتم لُوْسْ ، ابن والي هضبة بولان : «لاتعرفين هيكو» .

«أعرفها مذ صرتُ رسولَة يورابات إليها» ، ردَّت سيسين الناعسة العينين في وجهها الشديد البياض ـ وجه ابنة العشرين ، والتفتت إلى الشَّبح البعيد ، المدوَّنِ مثلهم في سطرٍ من أبجدية السهل الشاسع : «أتظنون أنه يتبعنا ، أم يواكبنا؟» ، ساءلتِ الثلاثةَ الآخرين .

«يتبعنا ، ويواكبنا ، في الأرجح» ، ردَّ دِيْكِينو ، ابن والي هضبة كوماس ، ذو الشعر الأسود ، الطويل ، الأجعد .

«بل هو مستأنس بنا في طريقه إلى هيكو» ، قال لُوس .

«مستأنسٌ خجولٌ لايريد مخالَطَتنا» ، قال بانيس . وأردف : «أو هو موفدٌ من الإيوان ليطمئنَّ على مسيرنا» .

منذ يوم ونصف اليوم كان ذلك الراكبُ الشيح ، البعيد ، يتوقف إذا توقف رُسُل القاضي يورابات الأربعة الموفدون إلى قاضي هيكو ، ويسير إذا ساروا . رأوه ، أول مرة ، في العراء الذي يلي بساتين الزيتون شمالَ ثاروس . عَشَرةُ شعاعات اختلستِ النظرَ ، من أقفال الغيم ، إلى الشبح فأضاءتْ كتفيه وردفَ جواده . «هذا شخصٌ خيوطٌ في نَسْجِ حائكاتِ الإيوان . لاشمسَ إلاَّ عليه . انظروا» ، قالت سيسين ، العذراءُ القديرة على إغواء الفراغ بمغزلها . وقد تكرر ظهورُ الشبح ، بعد ذلك ، بلاشمس على هيكله الغارق في سوادٍ حجابٍ ، سائراً في المهبِّ ذاته ، الذي أَسْلَم الأربعةُ الرسلُ إليه شراعَ رحيلهم ، حاملين كلماتِ يورابات ، وختمَه ، وبعضَ نسيجِ إيوانه ، إلى هيكو ـ محميَّةِ الروحِ الصلبة ، بعد لغطٍ سَكَبه جاجيليو من قَدَح حكايته ـ حكايةِ الرسول المنسوجة بلاإتقان ، في الأقداح كلها .

الساعاتُ التالية ، القليلة ، الفاصلة بين الأربعةِ الرسلِ وتخوم القلعة الطين ، في قلب هيكو ، كانت ساعاتِ مناجزةٍ بلطائف العقل ، تولَّتها الفتاة سيسين ، ذات العباءة الداكنة الزرقة ، حول آلهةٍ لم يتخذها أحدٌ ، بعدُ ، شفاعةً لأيامه . تقاذفتْ ، هي وديكينو ـ الشاحب قليلاً في لحيته الدائرية ، الحليق الشاربين على عادة أهل ثاروس ـ بأسماء الموازين ، والمكاييل ، وضروب المقاييس ، المُهْملة في أعراف المستنجديْن ، كل يوم ، بعقلٍ خفيٍّ يرنِّب لهم القَدَرَ ناضجاً ، رطْبَ المذاق ، زكيَّ الرائحة ، رقيقَ المَلْمَس : «اليعسوب . العَدَس . الثوم .

الحَبْل . القُنَّبيط» ، قالت سيسين ضاحكةً ، فعاجَلها بانيس بكلمات التوضيح : «القنَّبيطُ يُفسد المنيَّ . كلُّ الذين حبلت بهم أمهاتهم ، قبل جماع أكلَ الآباء فيه قنبيطاً صاروا رعاةَ إوز» .

«لِسانُك راعٍ شاردٌ عن كلماتك» ، قال لوس ، فردَّ بانيس ، ابن والي هضبة سيندًاكا : «الكلماتُ ، التي أريدها ، ملجومةٌ أبداً . ليت لساني أقلُّ حِرْصاً في رَعْيه ، يالوس . تمنيتُ لو أكون مِغزلاً في يديْ سيسين» .

«ماذا؟» ، ساءلتْه سيسين مبتسمةً . قهقه لوس : «إنه يتودَّد إليك ، يافتاةُ» .

توقف البغل ، الذي يجر عربةَ حوائجهم الصغيرة ، فتوقف ديكينو الممسك برسن البغل فوق ظهر جواده . حثَّه على السير بحروف المعاني المُشْتَركة ـ حروفِ الآدميِّ الأعجم والحيوان الناطق : «هِيْهْ . هِيْهْو . ررر . حا ، ياصديقي» ، فأرخى البغل عنقه يقضم عشباً يابساً مختلطاً بأخضرَ فتيٍّ أرضَعَه مطرُ الخريف . «إنه يتأمل نَفْسَه ، من جديد . يخاطبها» ، قال ديكينو .

رفع البغل رأسه من غير أن يتحرك . دار بعينيه على أنحاء السهل حتى استقرَّتا على الراكب الشبح الشبيه بهيكلٍ رمادٍ فوق ظهر الحصان البنيِّ . أطلق بوحَ الحيوان فيه من حنجرة وجوده المترقرق : «اخترتُك ، أيها الشبح ، إلهاً ليومي . ياشبيه خيالي المُتراكِبِ في بُعْدٍ واحد ـ صورةٍ تنفصم أجزاءً ، وتلتحم ؛ تتآلف أجزاءً وتتخالف . أمشي

فتمشي . أتوقفُ فتتوقفُ . أأنا أُلقِّنك صورةَ حركتكَ؟ حركتي هي أنتَ سائراً بانتظام وديع في حقل بصري . إنْ غبتُ عنكَ انتهيتُ . إن غبتَ عني تعثَّر يقيني بي . سنصل ، معاً ، أنا وأنت ، أيها الشبحُ ـ إلهي ، إلى عقل هيكو الواحد ؛ عقل هيكو المُدرَّب على منطق السهول ، من هنا إلى جبال كوربين» . هكذا حدَّثَ البغلُ أعماقَه الأليفة .

لاحتِ القلعةُ الطينُ في الأفق المستقرِّ صلباً بين رَحَيَي الأرض والسماء . الحقول تقدَّمت من الرُّسل ، مقروءةً سطوراً نافرةً في اللوح المحروث من تخوم القلعة إلى العراءات الأبعدِ . الحرَّاثون ، والزرَّاعون ، خالطوا السطورَ يقرأونها على مهلٍ بلسان محاريثهم ، ولسان البغال التي تجرُّ محاريثَهم ، ولسان البذور المنتظرة أن يُتلى بيانُها على سَمَع التـرابِ ـ جَدِّ الحكايات المُصغي ، أبداً ، إلى أحفاده البذور . تمهَّل الأربعة الرسلُ بعدما أدركوا أن ماتبقَّى من مهمتهم هو التريثُ قليلاً قبل دخول القلعة ، ذات البوابة الحجرية ، المتشعبة المداخل ، غير المحروسة . ارتأوا ، في عصر يومهم ذاك ، أن ينصبوا الخيمتين اللتين في عربتهم ، واحدةً للفتاة سيسين ، والأخرى للشبان الثلاثة ، فيُمضوا ليلَهم في السهل : «الصباحُ ، أبداً ، شفيعُ الغريب» ، قالوا . «الصباحُ صفاءُ محادثاتِ الرُّسل» . «الصباحُ ثِقَةُ اللسان بأحوال كلماته» . «الصباحُ بزرةُ الحظوظ» . «الصباح طاعةُ النُّور للوجود المُشرف على تأديب النور بآداب المجهولِ المُهذِّب» . «الصباحُ ميزانُ المستيقظ» .

«الصباحُ رغيفُ الله» ، قالوا .

أوقدوا ناراً من خشب زيتون ثاروس ، ورفعوا فوقها ، على شاقوليْن من الحديد ، وعاءَ اللحم المطبوخ قَبْلاً في الشحم والملح . أخرجوا خبزاً رقيقاً من اللفائف ، وزيتوناً ، وكيساً من الزبيب الذهبيِّ لسَمَرِ الليل . ربطوا أرسانَ الجياد والبغل إلى عجلات العربة . سقوها ماءً . أكرموها بزادٍ من التبن فيه شعيرٌ مجروش ، وقشرُ بطيخ مجفف . رصدوا الأفقَ المضاءَ ، بَعْدُ ، بالأمل المرئيِّ للأشكال ، فاستأنسوا بالأشكال .

لم ينزل الشبحُ البعيد عن جواده . ظلَّ واقفاً حتى أكمل الرسلُ نصبَ الخيمتين ، وأوقدوا النار . لوى عنق جواده صوبهم ، وتقدَّم متمهِّلاً أول الأمر ، ثم خَبَباً ، ثم أرخى العنانَ للجواد فكَرَّ عليهم كرَّاً صاعقاً .

وَجَم الرسل . سمَّرتْهم الحيرةُ فما اسطاعوا تأويلاً لغارة الشبح المقنَّعُ عليهم ، أهي ترويعٌ أمْ دعابةٌ طائشة يروم منها انضمامَه إلى مخيَّمهم . لكنَّهم تفرَّقوا مذعورين إذ رأوه يمتشق فأساً . داروا من حول عربتهم يتوسلون سلاحاً لم يحضروه : جاءوا عُزَّلاً في مسارب الهواء الأمين من ثاروس إلى هيكو . جاءوا بقلوبهم ، وقلوب جيادهم وبغلهم ، وختم القاضي يورابات ، وكلماته . ارتفعت من حناجرهم مساءلاتٌ يائسةُ النَّبر لايعرفون إلى مَنْ يتوجَّهون بها : أإلى أنفسهم ، أَم الشبح : «ماذا يريد؟» ، صرخوا؟ «ماذا تريد؟» ، أعادوا ترديد صدى أعماقهم . ناحتْ سيسين باختناقٍ وهي ترى الشفرةَ الحديدَ تهوي على رأس بانيس ، فينهار . حمحمتِ الجيادُ المربوطة الأرسان إلى

عجلات العربة ، حين احتمى بها لوس ، وديكينو ، منذهلَيْن ، فيما تراجعت سيسين على أعقابها . نظرتْ نظرةَ المستنجد إلى الحرَّاثين ، والزرَّاعين في سطور التراب النافرة حمراءَ على لوح السهل . استدارت صوب هيكو وركضت تتطاير من حولها عباءتها الزرقاء .

تدحرجت قبعتها الفاقعةُ الصُّفرة من خلفها . تدحرج أنينُ لوس من خلفها . لم تلتفتْ . لم يلتفت الهلعُ .

كانت سيسين تطير ، مذ رفعت ثوبها إلى فخذيها لتغدو حُرَّةً طائرةً بجناحي ذُعرها . تعثرتْ مرةً لكنها لم تسقط ، فاختلست ، في عثرتها ، نظرةً من خلف كتفها اليسرى إلى حيث تركت الرسلَ الآخرين . سقط قلبُها في الهاوية الأعمق التي تفتَّحت لخيالها الذاهل : كان الشبحُ ، وقد أنهى ذبحَ ديكينو في الأرجح ، يستدير بجواده إليها . يهمز خاصرتيه بعقبي نعليه ليطير الجوادُ مثلها ، فطار بجناحي قَدَره أن يكون لسانَ الموت في فم السهل الأخرس .

في البعيد ، غير البعيد كثيراً ، تبادل الحرَّاثون ، والزرَّاعون ، إشاراتِ استغرابهم عويلَ سيسين ونواحَها . لوَّح بعضهم لبعضٍ بمناديل كانت تغطي رؤوسهم وأكتافهم . عل نفيرُ بوق أجشٌّ ، فانكشفت جنباتُ القلعة عن رُكبان مستنفَرِيْنَ تحتهم جيادٌ سهامٌ من عضلٍ وحوافرَ ولهاثٍ ؛ جيادٌ ريشٌ في أجنحة السهل . لم يضيِّقِ السهلُ الرقعةَ بينهم وبين الشبح كما ينبغي . هوت الفأس بمنطق المعدن الصلب فيها على رأس سيسين . ظلت راكضة برهةً أو أكثر .

تباطأت . فتحت ذراعيها للخَدَر الرحيم ، الذي يعقب الألمَ الصاعق . أبقت عينيها الناعستين على جيادِ النجدةِ الناعسة . نامت واقفةً .

مرَّ الفرسانُ بجوار سيسين فتماوجت عباءتُها . ظلوا منطلقيْنَ خلف الشبح حتى أدركوه : إحدى عشرة حربة خرقت جسدَه الطويل النحيل ، فيما شقَّت الحربةُ الثانية عشرةَ حنجرةَ جواده ، الذي ألقى عليهم نظرةً من عينيه الخضراوين ، ثم أغمض قلبَه على حنينه إلى ثاروس .

في سرايا ميناذي بسط الفرسانُ بعضَ متاعِ جلبوه من عربة المقتولين : «تقاتَلوا فقُتِلوا . الأخيرُ فيهم رفع علينا فأسَه فقتلناه . نظرْنا في أحمالهم فلم نجد مثيراً غير هذه البُسُط النُّسُج ، وهذا الختم» ، قالوا .

تأمل القاضي ميناذي الختمَ جالساً : «شجرة زيتون . سنبلة شعير . نحلة» . لمس بيده النسيجَ اللاهثَ في شهوات اللون ، ثم عاد فقلَّبَ الختمَ بين يديه . وَجَم برهةً يستقرىء أحوالَ علومه : «هذا من أختام القاضي يورابات» ، قال بصوتٍ ظاهرِ البلبلة . دار بعينيه على الوجوه : «حضر إلينا ، من قبل ، غريب معه ختم كهذا . أتذكَّر جواده ذا العينين الخضراوين» .

وضع الختمَ على النُّسجِ بأناةِ يدٍ تتفكَّر في أحوال المجهول العاقل : «أكلُّ غريب يمرُّ بهذه الأنحاء يحمل ختماً من أختام يورابات؟!» . صمت قليلاً . رفع وجهه إلى أنحاء السرايا يستعرضها من جهةٍ إلى أخرى بلا تحديد : «الهواء ليس على مايرام هناك . الهواءُ منقسِمٌ على نَفْسِه في ثاروس» .

العنكبوتُ البابون

أوقف ميناذي جواده ملجومَ القلب . خفقَ المشهدُ في عينيه كأنما ينبض المكانُ نبضاً عنيفاً : «ماهذه الطيور كلُّها فوق هيكو؟» ، قال بلسانٍ لدغَهُ القلق .

سبعة أيام أمضاها قاضي هيكو ، مصحوباً بثلاثمائة من فقهاء القنص ، في عراء دُوْرْ ، موئلِ النعام الأسود ، وطيور كُوْكي العديمة الأجنحة . في مطالع الخريف ، من كل عام ، يرأس ميناذي قافلة الصيادين محمولةً بالمؤونة ، والخيام ، إلى تخوم السفوح الغربية من جبال كوربين . السهامُ القصيرةُ ، المغموسة النصال في سُمٍّ «له ذاكرة الهواء» ـ كذا صنَّفه داهيةُ السموم لامينا ، التمثالُ النحاسُ ـ ، تتبع الطرائدَ كظلالها . كل طائر ، إنْ خَرَقه سهمٌ ، يقف على ساق واحدة ، متوهِّماً «أنه استحال نباتاً» ، يضيف التمثالُ النحاس . وهو ماتأكَّد لفقهاء القنص موسماً بعد آخر ، فتمازحوا في الأمر : «قلْ لنا ،

يالامينا : أيّ نباتٍ يتوهَّم أنه هو؟» ، فيرد التمثال : «آخر نبات مرَّ به» .

«هذه طيور الهواء المُختلّ» ، قال هاذْرِيْكُومو ، الصياد الأعرج ، محدِّقاً كغيره إلى السماء فوق القلاع الصغيرة . حمحمت الجياد العائدة من عراء دُوْرْ . نطق نِيْلُوْمْ المعصوب الرأس بطوقٍ من ورق القصب : «طيورُ هواء الموت . أشمُّ الموتَ» . همز جوادَه فسبق الآخرين كالعاصفة .

مشى قلبُ ميناذي أمامه على رمل هيكو . تحسَّس قلبُه القتلى بيديْنِ من هَلَع يوقظهم فلم يستيقظوا . الطيورُ الكواسرُ والجوارح ، التي رأوها تنتهب لَحْومَ الموتى بمناسِرها ، انتَهَبَتْ مِزَقاً من قلوبهم الثلاثمائة أيضاً . «افْقأوا عينيَّ . جيئوني بالسمَّال يُعْمِني . املأوا وَقْبَيَّ بالطين . لاأريد أن أرى . .» ، صرخ زارْدُوْ ، شقيق القاضي ميناذي . شقَّ صدرَ قميصه ، تحت المعطف ، فشقَّ الآخرون قمصانهم لوعةً .

«لن أدخل السرايا» ، قال ميناذي . جال ماشياً بين القتلى في الأسواق ، وفي مداخل القلعة ونواحيها . القلاعُ الأخرى ، الصغيرة ، المبثوثةُ منفصلةً بأسوارٍ واطئةٍ من الطين ، تطابقت فيها أحوالُ الموت . عاد المتحرُّون الفرسانُ شاحبين . حمل بعضهم فؤوساً إلى القاضي : «هذه ليست من صناعتنا . مقابضها من خشب زيتون ثاروس» ، قالوا .

جلس ميناذي على الأرض خائراً . سوَّى الرملَ الرقيقَ براحته . رسم خطَّين متوازييْن ، وقمراً هلالاً كالوشْمِ الذي على ظاهر يده :

«سنقضم ثاروس قلباً قلباً . سندخل عظامَ أهل ثاروس كالعنكبوت البابون . سنجفِّف رئاتهم بريح الغضب في رئاتنا . سنُغْلِق على أرواحهم الفراغَ الموحشَ ـ فراغَ الندم متعاقِباً بلانهاية» . مسح عينيه بطرف عباءته . «سآخذ معي علومَ المخلوقِ لامينا النحاسِ إلى ثاروس» ، قال . نادى بصوت تتهدَّمُ فيه الحروفُ فوق الحروف : «اجْمعوا مؤونةً . املأوا القِرَبَ بالمياه . وأنتَ يامِيْكِيْتِس الحزينُ آتني من خزانة المحراب ، المكسوةِ رقائقَ من الخزف الأزرق ، بالكيس الأسود ، المطوَّق العنق بشريط عليه رسومُ الشموس» .

مسح الرملَ براحته فأعادَهُ مُغْلَقاً على فراغه .

«لن ندفن أحداً» ، قال للشاحبين من حوله . «سأختار الطيورَ الكواسرَ ، والجوارحَ ، آلهةً لأيامي القادمة كلِّها . فَلْتَتَوَلَّ الطيورُ الكواسرُ ، والجوارحُ ، دَفْنَ أهل هيكو» .

على تخوم هضاب ثاروس الثماني ، وراء القصب الكثيف لنهر كُوفَالو ، أنزلتْ قافلةُ القاضي ميناذي أحمالَها وخيامها . كانوا بعيدين كفايةً عن أعين صيَّادي مخلوقات الماء ، وعن نواطير الكروم ، ورعاة الماعز في بساتين الزيتون . صنعوا طَوْفاً من جذوع القصب عبر عليه خمسةٌ منهم إلى الضفة الأخرى ، ثم أخفوا الطَّوْفَ . رصدوا أفقَ الهضبات وهم يطوِّقون أعناقهم بالأوشحة كما يفعل أهل ثاروس . قاسوا بأعينهم مدارجَ العوالم الخفية ، في الهواء ، من الشرق إلى الغرب . مشوا حامليْن عصيًّاً يتوكأون عليها ، متشمِّميْن المسالكَ

الأكثرَ عَرْضاً ـ مسالكَ عبور أسراب الماشية والعربات إلى نداءِ المياه : هكذا حدَّدوا ، بتخمينٍ دقيق للمعالم ـ كالكلاب الأدلاء إلى مناجم الكمأ الدفين ـ ثماني آبار تصلُها معابرُ مرصوفةٌ بسفوح الهضاب ، وبحظائر الماشية من حولها . أمضوا يوماً يشربون من مائها ، ويأكلون من زادٍ حملوه في خُرْجِ جلْدٍ تعاقبوا على حمله ، ثم عادوا إلى مخيَّمهم المستور في رعايةً القصب الحافظ .

في ليل اليوم الثاني عادوا إلى الآبار بالكيس الأسود ، المطوَّق العنق بشريط أصفر عليه رسوم الشموس . نثروا في كل واحدة حفنةً من الدقيق الحرِّيف الرائحة كفلفل أحمر مطحون في خلٍّ التفاح الفِجِّ ، وقرأوا ، بصوتٍ خفيض ، دعاء النَّقْمة : «هَبْنا أيها المستورُ الحِجابُ عَظْمَ زندك القاسي ؛ تَرْقُوتَك القاسيةَ ؛ أضلاعَك القاسية ؛ عُصعصَك القاسي ؛ عَجُزَك القاسي ؛ أسنانك القاسية . هَبْنَا هيكلَك القناعَ نكُنْ به الذُّعَر الحقَّ ؛ الرؤيا في اليقظةِ الحريقِ ، والمنامِ الحريق» . عادوا إلى مخيَّمهم خلف قصب نهر كوفالو . وانتظروا أن تختمر بذرةُ الهول .

أوقدوا نيرانَهم في حذرٍ . ناموا في حذرٍ . اغتسلوا في النهر في حذرٍ . جفَّفوا أحزانَهم كالقديد يمضغونها مالحةً في حذرٍ . تداولوا النظرَ في أحوال الإنسان المُرتبكة . قلَّبوا كلماتِ ثادريميس على وجوهِ التأويل كلِّها : «أنتم خلائق الخوف» . «نحن الخوف» ، قالوا . «نحن نزوع الخوف إلى الخوف . نحن رعاةُ الخوف ؛ حكايتُه ؛ أملُه ؛ أدلاؤه ؛

شؤونه ؛ حيلتُه ؛ أزلُهُ وأبدُه» .

رسموا بأناملهم ، على التراب ، قبوراً لِمَنْ فَقدوا . تذكَّروهم في صورهم الأخيرة قبل رحلة القنص . اغرورقت حروفُ أسماء القتلى ، كعيون الثلاثمائة المتربصين ، بدموع من عِلَل الوجود المتخبِّط في تقدير نَفْسِه وجوداً . بكوا في حذر . ردَّدوا اسمَ ثاروس في حذرٍ . ردَّدوا اسم القاضي يورابات في حذر .

«بعد سبعة أيام ستجفُّ قلوبُهم من الماء المسموم» ، قال نِيْلُوم ، أمينُ محفوظات القضاء في السرايا . «بعد سبعة أيام نصعد الهضابَ كي نسمع قرقرةَ الجفاف» .

«لا» ، قال ميناذي مُقاطعاً . «سنصعد في اليوم الخامس . أريد أن أرى عيونَهم تتأمَّلنا قبل الموت» . عضَّ على الهواء : «أريد أن أرى يورابات حيّاً» .

باتوا أقلَّ حذراً في إيقاد نيرانهم ؛ في نومهم ؛ في اغتسالهم ؛ في نشيجهم ؛ في ترديد اسم ثاروس مقذوفاً من الأفواه إلى شقاء ثاروس . وفي اليوم الخامس تركوا عرباتهم وجيادهم على ضفة نهر كوفالو . عبروا إلى ضفته الثانية ، على أطواف من القصب يحملون زاداً وماءً ، وسهاماً قصيرة غُمِستْ في سُمٍّ من علوم لامينا : «سنجعل أحياءَ ثاروس يخالون أنفُسَهم نباتاً» .

كانت نواحي الهضبات ، والبساتينُ ، محتشدةً بسطورٍ بشرٍ لم تعد قادرة على صعود السفوح ، أو حمل الماء . هياكل متقوِّسة ،

أو جالسة في ضراعةٍ إلى النهاية ، أو متمدِّدة تتنفَّس من رئة اليأس هواءَ الضفاف السوداء . عَبرَ القاضي ميناذي والفقهاءُ الصيَّادون بين ثمار الوهن الناضجة على أغصانها الآدميَّة . لمسوها بأيدي قلوبهم المجروحة ؛ بأيدي اللوعة ذاتِ الأناملِ الغضبِ . صعدوا سفح هضبةِ نِيْنْ الواقعة ، بجلال زخرفِ برجها المخروطي ، وسط حلقة الهضاب السبع الأخرى ؛ في الكميْنِ الثِّقَل الذي يليق مَحَلاً بالقُضاة .

تتبَّعت العيونُ ، المُهدَّمةُ معاقلُ أبصارها ، عبورَ الثلاثمائة الشاحبين بلافضولٍ . مدَّ البعضُ أيديَ متضرِّعةً لم تلبث أن انخفضت من وَهَنها . تكلم البعض بألسنة لها لَجْلَجَةُ الأنقاض ، لكن الثلاثمائة حفظوا وجوههم مرفوعةً إلى القلعة الطين . «مَنْ تُرى ، يُشبه القاضي يورابات؟» ، ساءل ميناذي الصيادَ هاذريكومو الأعرجَ .

«يشبه نَفْسَه» ، ردَّ الأعرج .

«لم يَر أحدُنا الآخر . تَبَادَلنا أختاماً . تبادلنا ريشَ نعام وريش كوكي ، ونسيجاً» ، قال ميناذي . همس إلى نَفْسه : «القُضاة يُعْرَفون حين نراهم . سأراه ؛ سأعرفه» .

ألقت الشمسُ شعاعاتٍ لاهثةً ـ بذوراً ضوءاً من غربال الغيم ، في شروقها ، على أثلام الخريف . حوَّمت نحلة حول وجه ميكيتس الحزين ، ثم حطَّت على رُدن عباءته . نَهَرَها بحركة من يده فلم تطِرْ : «أتظن أن سيلوبو ـ المخلوقَ النحاس ، درَّب نحلَ ثاروس على العصيان؟ لانحل يبقى خارج قُفرانه في وقت كهذا» ، قال للحزين الذي

يجاوره . ضرب النحلةَ بنصل الحربة العريض فمعَسَها .

حين بلغ الثلاثمائة مدخل القلعة الطين استشعروا حركةً في ساحتها . تهيَّأوا حذريْنَ بعد أن كانوا مستريحي عَصَبٍ وخيالٍ إلاَّ من اللوعة . واجهوا الساحةَ منتشريْنَ قوساً واسعاً ، متحسِّبيْنَ ، فلم يُطلْ تحسُّبُهم : خرجت الفؤوسُ مرفوعةً من الأروقة المحيطة بالبرج . اختلط المعدنُ بالمعدنِ ، والزَّعْقَةُ بالزعقة ، وتساحقت القلوبُ . تعثرت الحياةُ بقُفَفِ الموت المعروضة كزنابيل البقَّالين ، فاعتذرَ أحدُهما إلى الآخر عن خطئه .

تراجع ميناذي بمحاربيه من المباغَتة : سهامهم لم تحظَ بنصيبها في التحام الأجساد ، فأرادوا انفصالاً ، فلوحِقوا ، فتداخلوا ثانيةً .

تقطَّع لحمٌ ، وانحبستْ حناجرُ على شكوى الدم .

في الظهيرة انفصل الجانبان من الإعياء . ماعادت الأذرع قادرة على مناوشةٍ ، ولاالأقدام على تدارُكِ استغاثةٍ لجريح . نزل ميناذي إلى السهل ، وعاد يورابات إلى محيط البرج الطيني .

في الفجر الثاني فوجيء ميناذي وجمْعُه ، القادمون من مبيتٍ وراء قصب نهر كوفالو ، بجمْع يورابات منتظراً وسط البساتين ، أسفل الهضبة . كان ديامين اقترح علَى القاضي البقاءَ في القلعة لمجابهة أهل هيكو ، لكن يورابات تكلَّم بلسان المعلوم المتقشِّف الزاهد كالمجهول المتقشف الزاهد ـ مدرِّبه في الأحوال كلِّها : «انظرْ حولك ، ياديامين . تهشَّمتْ ثاروس كالإناء الزجاج . لانار تُلْحِمُ الإناءَ الزجاجَ المهشَّم ،

ياديامين» .

في الليلة ، التي سبقت نزول يورابات بأهله ، وجماعته من أمراء الآبار والعقلاء وأئمة خطط الحروب ، إلى البساتين ، عمدتْ بناتُه الأربع إلى تزويق وجْهَي ثادريميس ، وأهفافا ، بالأصباغ والمساحيق ، صاعداتٍ مقاعدَ الحائكات ، تحت ضوء المصباحين الكبيرين المتدليَيْن ، بسلاسل ، من سقف الإيوان . راقبتهم العيونُ الساهرةُ ـ عيونُ المتأمِّلَيْنَ منافذَ القَدَر الضيقةَ في سور الغيب ـ مستقرئةً تلك الهناءةَ في حركاتهنَّ كأنما مَحَوْنَ غدَهنَّ من سيرورة الزمن السطورِ فأرْبَكْنَ القراءاتِ : الغَدُ ثغرةٌ مَلأْنَها ، إلى الأبد ، بِراهِنهُنَّ ، منصرفاتٍ ، في مَرَحٍ ، إلى استدراج اللون أليفاً ، وديعاً ، رقيقاً ، غضَّاً إلى وجهَيِّ التمثالينِ ، فأنعشْنَ خيالَ المعدنِ الصلب في الروح الصلبة لثادريميس ، وخيالَ الحجر الصلب في الروح الصلبة لأَهفافا .

بدا التبرُّجُ مُحْكَماً : هكذا خمَّنَ التمثالان وهما يتطلعان إلى وجهيهما في المرآة الكبيرة التي حملتها التوأمان رابونا ، وبانينوتي ، بمعونة أختهما الكبرى سيلونيا . لكن المرأتان التمثالان استعرضتا ، ببصر الحقائق النَّهمة ، تبرُّجَ الفجر القادم للذي يليه ، والذي يليه للذي يليه . كلُّ فجرٍ ، متبرِّجاً ، يقدم للآخر بنودَ اتفاقه على اختزال لحياة : سهامُ أهل هيكو الطائشةُ ، والمصوَّبةُ بإتقان ، ستحصد محاربي ثاروس وعيالَهم معاً . سيتصلَّبون وهم «يحسَبون أنفسَهم نباتاً» . فؤوس أهل ثاروس ستنهش ، بأنيابٍ حديدٍ ، عظامَ محاربي هيكو . سيمرُّ

يورابات بالقرب من ميناذي . سيتأمله قبل أن تشق حنجرتَه حربةُ هاذريكومو الأعرج . سيعمِّم المطرُ الوحلَ كهِبَاتٍ حتى لتَصيرَ الوجوهُ ، من تطايره ، في أقنعةٍ . الحائكات الأربع ، اللواتي سينقلْنَ أنوالهنَّ على محفَّتين يجرُّهما بغلان ، سيجلسن في عباءاتهن الصفراء الذهبية ، أمام خيوط الفراغ يرصُصْنَها بالأمشاط الخشب ، وهنَّ يغنِّيْنَ غناءاً خافتاً . سيبتلُّ غناؤهن . سيبتلُّ الفراغُ ، وسيبتلُّ اللون ، قبل أن يستردَّهنَّ نسيجُ الأنوال من مقاعدهنَّ صوراً صامتةً . ستذوب الأصباغ منحدرةً خيوطاً على وجهَيْ أهفافا وثادريميس ، في عبورهما بالتماثيل بين الموتى . سترخي المرأةُ البرونزُ ذراعَها عن اللوح المحمول على كتفها فيتهشَّم في الوحل : أحد عشر نَحْتَاً نافراً لشخص ديامين ستتمازجُ شظايا .

نحلةٌ دائخةٌ ستحطُّ على درع التمثالِ النحاسِ سيلوبو ، البالغ ذراعاً واحدةً طولاً . سيرتفع صريرٌ رطبٌ من عينيه إذْ تتحركان في محجريهما المعدنييَّن . سيتمتم : «لم أدرِّبْكَ ، يانحلَ ثاروس ، على علومي . عِشْ سعيداً بعلومك العادية» .

ذبابةُ الوجود

حوَّمت ذبابةُ الوجودِ المُسْكِر حول خيالَيِّ التوأمين بانينوتي ، ورابونا ، ذلك اليوم الذي تفتَّقت بزرةُ الأحاديث عن التماثيل ، في إيوان يورابات ، عن ألَقِها الذهبيِّ . «تماثيل!!!!» : ردَّدتْ بناتُ أمراء الآبار ، وأبناؤهم ، الصغار ، اللاهون حول مقاعد الكبار ، وأنوالِ الأخوات الحائكات . قلَّبوا الصورَ بيديِّ العقلِ الثالث ـ عقلِ الذهول الناعسِ فوق غمام أعماقهم . تأمَّلوها غامضةً ، ساحرةً ، قَلِقةً ومَهيْبةً : «تماثيل» .

«فلْنُحْضِر تمثالاً من هيكو إلى ثاروس» ، همستْ رابونا في أُذن نِيْرِيْنُو ، الصبيِّ الذي يكبرها بعام . خُلِبَ الصبيُّ : «نحضرُ تمثالاً؟!!» . توقفتْ دورةُ الكوكب الصغير في شفق خياله برهةً . غمز الأولادَ : «تعالوا» .

خرج نيرينو بأترابه من الإيوان . عبر بهم السوقَ حتى مَخْرَجِهِ

المُفضي إلى النبع الصغير ، أعلى السفح الشرقي لهضبة نين . جلسوا على التراب المُعشب ، ناظريْنَ ، من الأعلى ، إلى الأربعين رجلاً ينقلون دِلاءَ المياه ، على المدرج ، إلى الخزان الكبير .

«كيف نأتي بتمثال من هيكو؟» ، سأل نيرينو ابنةَ القاضي ذات العينين الدعجاوين . ردَّت بانينوتي : «نبعث برسول إلى هيكو» .

دار الأولاد بأعينهم أحدُهم على الآخر . نثر المنطقُ الأخرسُ حروفَه اللامنطوقة في الهواء . «نعم . نبعث برسول إلى هيكو» ، قالوا راضيْنَ عن نباهة المعاني في حناجرهم . لكنهم وَجَموا قليلاً حين تكلَّم دُوْدُوكا الأفطس الأنف : «مَنْ سيكون رسولنا؟» .

اعتصر الصَّبْيَةُ عقولَ أعمارهم . تكلَّمت نازِيْن ، الممتلئة الشفتين ، بصوتها الأبحِّ قليلاً : «جاجيليو» .

هاج الأولاد متخاطفيْنَ حروفَ الإسم . «أنا سأكلِّمه» ، قال كُوْتْ الطويل الأظافر . عارضتْهُ رابونا : «بل أكلِّمهُ أنا» .

نهض نيرينو باحتجاج : «هو طوْعُ بناني . ألعب به كلَّما أعطيته وشاحاً من أوشحة أبي . أنا أكلِّمه ، يارابونا . أنا أكبر منك» .

«هِيْهْ . ماذا ستقول له؟» ، ساءلته بانينوتي ، فردَّ نيرينو المنخفض الكتفين ، البارزُ وريدّيُّ العُنق : «أقول له : اجلبْ لنا تمثالاً من هيكو» .

«أتظنُّ أن أهل هيكو يمنحون تماثيلَهم لكل غريب يَفِدُ إليهم ، يانيرينو؟» ، قالت بانينوتي باستهزاء .

«ماذا نقول له ، إذاً ، ياابنة هضبة نِين؟» ، سألها نيرينو .

«عليه أن يُقنع أهل هيكو أنه رسول من قاضي ثاروس ـ أبي ، يانيرينو» ، قالت بانينوتي ، فثنّى نيرينو على اقتراحها : «حسناً . سأقول له ذلك . سأكلِّمه» .

«بل أكلِّمه أنا» ، قالت بانينوتي . وأردفتْ حازمةً : «سآتيه بختمٍ من أختام أبي . أنا سأكلِّمه» .

«حسناً» ، قال نيرينو بامتعاض . «كلِّميه قَدْرَ ماتشائين» .

صفَّق دودوكا الأفطس الأنف : «سنطلب التمثال النحَّات» . دار بعينيه عليهم : «سمعناهم في الإيوان يردِّدون اسمَ امرأةٍ برونزٍ تنحت الرسومَ» .

«نعم . نعم» ، ردَّد الصِّبْيَةُ في حَزْمٍ : «المرأة ـ التمثال النحات . سنطلبها هي لاغيرها» .

أطبقت رابونا عباءتها الزرقاء على جذعها : «ستنحتُ المرأةُ رسماً لي» ، قالت .

«ولماذا لاأكون الأولى؟» ، ساءلتها نازين .

احتدم دودوكا : «وماذا عني؟» ، قال ، فجاراه كُوتْ الطويلُ الأظافر : «وماذا عنِّي أنا ، وعن نيرينو ، ودُوْهْرانْ ، وكَالْتِيْكْ ، و . . .» ، فقاطعته بانينوتي : «لا أنتَ . لا هي . لا هو . لا أنتم كلُّكم . أنا آتي بالختم . أنا مَنْ ستنحتُ المرأةُ البرونز لي رَسْماً ، أولاً» .

رمى نيرينو بحجر في الهواء . رمى كلماتِه صلبةً : «إذهبوا من دوني إلى جاجيليو» . لفَّ عباءته على جذعه ومشى مغادراً ، فنهضت

نازيْن مغادرةً بدورها احتجاجاً . لانَتْ حنجرةُ بانينوتي ، فتكلَّمت بلسان المساومة : «لماذا تغادران؟ سنطلب من المرأة البرونز أن تنحت لنا رَسْماً واحداً يضمُّنا في حجر كبير واحد . لاأحدَ أولاً ، بل نحن ، جميعاً ، أولاً» .

بتحوُّطٍ صارم ، وحذرٍ مُحْكَم ، انتشلت بانينوتي ، ختماً من أختام أبيها ، من الصندوق الأصفرِ المودع في مقصورة اجتماعاته بالحكماء ، حيث لفائفُ المُعَارَضات ، والمُنَازَعات ، والتحكيم ، مبوَّبةٌ أهراماتٍ صغيرةً في الكُوى الدائرية . حملت الختمَ ، مع أترابها ، إلى ساحة معصَرة هضبة كينسي ، التي لايفارقها جاجيليو ، المغلول القلب في ستِّ عشرة سلسلةٍ من سلاسل الهوى ذي الأقفال الأزلية : لقد سلبتْه سَانُوْنْ البدينة ، ابنة الوالي هادِدْ البذيئةُ اللسان ، ماتقدر فتاةٌ ، بشقاءِ العاديِّ الخارقِ فيها ، أن تسلبه من رجل فتنتْه حيلةُ العاديِّ فيه . «سانون ـ يازيتَ قلبي ، وقلبِ جوادي» ، يبوح الأبله العصبيُّ الوجه لناظرة المعصرة عن بُعْدٍ . لايقترب منها . بعيداً ، في طرف الساحة المواجه لبوَّابة المَعْصرة ، يعرض على خيالِ الأقدار الشارد شكوى أعماقه ، لابتضرُّع بل بلسان المهدِّد : «سأقوِّض هضبة كينسي على آلهة أهلها . سأقوِّض المعصرة على سانون . سآخذ سانون ميتةً إنْ لم آخذها حيةً ، وسأذبح جوادي ونَفْسي وق صدرها ، بعد ذلك» . يجلس وينتظر مبتهجاً بتهديده ، الذي لايصل منه شيء إلى أحد .

في الساحة هناك ، التي دأب عمال المعصرة على التباري بأناشيدَ

فاحشةٍ ، في استراحة الظهيرة ، أحاط الصِّبْيَة بجاجيليو : «عندنا لك مهمة» ، قالت بانينوتي .

قهقه جاجيليو الجالس على كومة من أغصان الزيتون : «عندكم مهمة لي؟! . ماذا يحدث لأولاد ثاروس؟ يولدون بلهاء ؛ يكبرون بلهاء» .

جلس نيرينو إلى جواره . قرفص الصِّبْيَةُ من حولهما : «جاجيليو ، لك عقل مائة جواد . لك قوة مائة جواد . نريد أن يرى أهل ثاروس ذلك» ، قال الصبيُّ ، فتأمَّله جاجيليو : «لاأرى وشاحاً معك . أجئتني بوشاح؟» ، قال وهو يجسُّ عباءة نيرينو ، فردَّ نيرينو : «بل جئناك بمهمة تجعل منك فريداً ، وحيداً أوحدَ في نوعك ، بين أهل ثاروس» .

«كل امرأة ، في ثاروس ، ستبتسم لك» ، قالت نازين .

«كل والٍ سيتمنَّى أن تتزوج ابنتَه» ، قالت رِيْكا المعقودة الحاجبين .

ضاقت على جاجيليو مكاشفاتُ الفخر الذهبيِّ . تمتم بلسان المُجَامِلِ فيه : «وسيتخلَّى لي القاضي يورابات عن إيوانه» . ضحكَ . ضحك الصِّبْيَةُ .

«ستكون رسولَ أبي ، يورابات» ، قالت رابونا .

«رسوله إلى مَنْ؟» ، ساءلها جاجيليو .

«إلى هيكو» ، قالت بانينوتي . ركعت على ركبتيها فوق أغصان الزيتون ، ومدت ذراعها صوبه . فتحت راحتها : «أتعرف ماهذا؟» ،

ساءلته ، فلم ينطق . «هذا ختمُ أبي» ، قالت .

ظلَّ جاجيليو على صمته المترقِّب . حدَّق إلى بانينوتي . لمس بسبابته اليسرى الختمَ في راحتها : «ماذا أفعل به؟» ، ساءلها ، فردَّت الفتاة :

ـ تحمله إلى قاضي هيكو . لاأحد يردُّ طلبَ رسول يحمل ختمَ أبي .

طرقت كلماتُ بانينوتي المُقْنِعةُ خيالَ جاجيليو بأناملها . تكلَّمَ : «ماذا أطلب من هيكو؟» .

«تطلب تمثالاً . لم يأتِ أحد بتمثال إلى ثاروس . ستكون الأول» ، قالت رابونا .

صعدتْ خنفساءُ الرغبة ، بطيئةً ، إلى يقينه . فتمتم : «أعرف الطريق إلى هيكو» .

لمست بانينوتي قدمَه الممدودة في الحذاء القاسي : «مَنْ إلهك اليوم ، ياجاجيليو؟» ، فردَّ الرجل العصبيُّ الوجه :

ـ مَعْصرة كينسي .

«هلاَّ أقسمتَ بالمَعْصرة أنك لن تخبر أحداً بهذا كله؟ لن يعيش جوادك طويلاً إذا حَنَثْتَ بالقَسَم» ، قالت بانينوتي ، فارتعد عِرْقُ الحقيقة في كبد جاجيليو .

في الطريق إلى هيكو استعاد جاجيليو الرسولُ ، مراراً ، على شَفَقِ عينيه العريقتين ـ عينيِّ الكمال التائه ـ صورةَ امرأةٍ تمثالٍ معدنٍ تنحتُ

في الحجر ظلالاً نافرةً لمخلوقات الوجود . بانينوتي حذَّرتْه : «لا تعُدْ إلاَّ بالتمثال النحاتِ ـ تمثال المرأة» ، فأخذَ التحذيرَ على مَحْمَله : «سآتي بتمثال المرأة المعدن ، لا بسواه . ستصير ثاروس جواديَ الثاني ، بعينين زرقاوين» . لمس عنقَ جواده ذي العينين الخضراوين في رقَّة . رَبَتَ عليه : «لاتُرِني غَيْرَةً . ستظلُّ المُفَضَّل عندي . أُقسِمُ لك بجبال كوربين» .

بحر هِيْلاَ كرِيْتُو ثِيْنِيْسْ

ألقت التماثيل التسعةُ نظراتٍ لااكتراث فيها ، من جهة السُّهْبِ المُعشب ، شمالاً ، صوب ديامين ، ومينـاذي ، جاثيِيْنِ ، في عناقهما الدمويِّ الأخير ، ثم استدارتْ راحلةً .

في الشعاب العريقة ، الملتوية ، أسفلَ سفوح جبال كوربين ، قادتْ التماثيلُ أجسادَها الصلبةَ ، متنفِّسةً من مسامِّها الكتيمةِ هواءَ الجمادِ الطليقِ . لم يكلِّم أحدُها الآخر . صريرُ معدنٍ ، وقرقراتُ حجرٍ توالتْ رتيبةً . نزحتِ السماءُ عن الأرضِ مرَّةً ، ونزحتِ الأرضُ عن السماء مرَّةً ، في توالي المقايضات المُرْتَجَلَة بين الظلام والنور . تآصرتْ ظلالٌ ، وتفسَّخت ظلالٌ . أصداءُ قلبِ الجبل الواحد ، المتوزِّعِ قلوباً على أبنائه السلاسل ، تدرَّجَ خافتاً ، فصاخباً ، مذعوراً من كونه جبلاً ؛ مستأنِساً بكونه جبلاً .

لم يكلِّم تمثالٌ تمثالاً آخر بلسان نشأته شكلاً عن يدِ الآدميِّ .

كلَّم الجمادُ الجمادَ بلسان الضرورة التي استحدثتْهُ صلباً حجراً ؛ صلباً معدناً .

عرَّجت التماثيل ، من نهايات السفوح الغربية لجبال كوربين ، شرقاً ، بعد ثمانية وتسعين يوماً . قدَّمتْ ولاءَ الشكل الصلبِ للعراء الممتدِّ بلانهاية ، تحت سماءٍ مسحوقةٍ فرسخاً فرسخاً في جُرن الأرض الأكثرِ عمقاً من السماء . من هناك شقَّت طريقها باستقامة ، بعد طوافِ دورتين حول صخرةِ كِيْكِيْلْ المثلَّثة ، الضخمة ـ صخرة الذاكرة الكبرى للنسيان العريق . في الصباح السابع ، الذي أعقب طوافَها ذاك حول صخرة كيكيل ، بلغتْ مداخلَ أفق الرملِ ذات البوابات الخمس المُحْتَجَبة ، المنحوتة بعقل الريح الهادىء في إنجاز مهمَّاته العاصفة . وقفتْ في خشوع :

تفتَّح بُعْدُ العراء عن أخدود تَايِيْسْ ـ الصَّدْعِ الأعظم ، ذي الجدارين الشاهقين ، اللذين تتدفَّق عبرهما ريحُ الجفاف بعزيفها .

دخلت التماثيلُ الأخدودَ . أوغلت فيه . أوغل فيه القِدَمُ ، من خلفها ، بشهيقه شهيقِ المعدن ، وزفيرِه زفيرِ الحجر .

في أَمَدٍ أوَّلَ من فراسخ الرحيل ، التي لاتُحصى ، توقفتِ التماثيلُ الحجرية : أهفافا ، نيناردِيس ، نيذريو ، ميديكسا ، سِيْس ، روسالو . افترق كلُّ ثلاثة إلى جدارٍ أسندت ظهورها إليه ، متواجهةً ، على جانبيِّ الصَّدْع : لقد أسلمتْ بزورَ العقلِ الحجرِ فيها للريح تعودُ بها ، قَرْناً بعدَ آخر ، رَمْلاً إلى بساتين هبائه العادل .

أكملتِ التماثيلُ الثلاثة الأخرى عبورَها في أخدود تاييس ، غيرَ آبهةٍ بالسماء تتقلَّب ، من فوقها ، على عجلات القرون .

بلغتْ ثادريميس البرونزيةُ ، وسيلوبو ، ولامينا النحاسيان ، مَخْرَجَ أخدود تاييس ـ صَدْعِ الأزل المشرف ببوَّابته على أقاليم المياه ذاتِ الجهاتِ المياه .

صعدتْ ، على مهل ، تلك الصخرةَ المستويةَ السطح ، المُهيَّأةَ لصعودها منذ بزوغ عقلِ الجماد على وجوده . تجاورتْ ثابتةً في وقفتها الأخيرة أمام الشَّسْعِ الأزرق ، الساكن ، السحيق : بحر هِيْلاَ كرِيْتُوثِيْنِيْسْ .

سكوغوس ـ السويد

٢٠٠٤

صدر للمؤلف

* كل داخل سيهتف لأجلي ، وكل خارج أيضاً (شعر)
* هكذا أبعثر موسيسانا (شعر)
* للغبار ، لشمدين ، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر)
* الجمهرات (شعر)
* الجندب الحديدي (سيرة الطفولة) (سيرة).
* الكراكي (شعر)
* هاته عالياً ؛ هات النَّفير على آخره (سيرة الصبا)
* فقهاء الظلام (روَاية)
* بالشِّباك ذاتها ؛ بالثعالب التي تقود الريح (شعر)
* أرواح هندسية (رواية)
* الريش (رواية)
* البازيار (شعر)
* الديوان (مجموعات شعرية في مجلد واحد) (شعر)
* معسكرات الأبد (رواية)
* طيش الياقوت (شعر)
* الفلكيون في ثلاثاء الموت : عبور البشروش (رواية)
* الفلكيون في ثلاثاء الموت : الكون (رواية)
* الفلكيون في ثلاثاء الموت : كبد ميلاؤس (رواية)
* المجابهات ؛ المواثيق الأجران ؛ التصاريف ، وغيرها (شعر)
* أنقاض الأزل الثاني (رواية)
* الأقراباذين (مقالات في علوم النَّظر)
* المثاقيل (شعر)
* الأختام والسديم (رواية)
* دلشاد (فراسخ الخلود المهجورة) (رواية)
* كهوف هَايْدْرَاهُوْدَاهُوْس (رواية)
* المعجم (شعر)

T H A D R I M I S

رواية
NOVEL

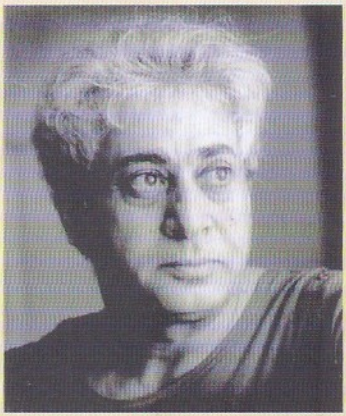

ثادريميس

حكاية المَعْقليْن الآخيرين للبشر: ثَارُوس، وجارتها هِيْكو، على تخوم جبال كُوْربين السوداء. حكاية أختام، ورُسُل، وتماثيل، ونهايات لا يمكن كتابتها إلاّ هكذا: أيْ تاريخُ كلِّ تاريخ مُختَزَلاً.

حكاية اللوح المُهشَّم، الذي تبقى من الرسم المنحوت لشكل الإنسان: أيْ وجودُ كلّ وجودٍ مُختَزَلاً.

مصادفاتٌ مبوَّبة هي هذه الرواية.

ISBN 9953-36-676-4

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنائع، بناية عبد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: مروكاب،
هاتفاكس: ٧٥٢٣٠٨/٧٥١٤٣٨